عزيز نيسين

ذكريات من المنفى

ترجمة: عبد اللطيف عبد الحميد

الكاتب التركي الساخر

«عزيز نسين»

و

«ذكريات من المنفى»

ترجمة

عبد اللطيف عبد الحميد

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية ـ 1997

دار الطليعة الجديدة

سوريا ـ دمشق ـ ص.ب 34494

هـ: 7775872

اخراج: هالة فطوم
صمم الغلاف: جمال سعيد
تنفيذ الغلاف: بلاتينيوم

مقدمة المترجم

لدى كل إنسان سر خاص به، وهو لسبب أو لآخر لا يفصح عنه إلا لأقرب الناس إليه، وقد يغادر الحياة دافناً معه ذلك السر. ونحن في العربية نَصِفُ الإنسان الصموت بأنه «قصير اللسان» أي أنه غير ثرثار، أمين لأسرار الناس، لا يتشدق بها، وهو بذلك ينتمي إلى أولئك الناس، الذين لاشيء يغريهم في التندر بأسرار أصدقائهم تحت أي ظرف، حتى لو افترقوا وربما صاروا أعداء لبعضهم.

لكن هذا المرء، مهما كان صلباً فهو لا يقدر على كتمان ذلك الشيء الذي يستدعي الضحك.

على ما يبدو أن هناك اتفاقاً خفياً بين البشر، حتى البخلاء منهم أن يكونوا كرماء إلى أقصى حد فيما يتعلق بالمضحك.

فأنت لو طلبت مالاً أو أي شيء من إنسان بخيل، فإنه سيجد كل المبررات الخاصة به كي يتنصل من تلبية طلبك، لكن جرب وقل له: «أسمعني آخر نكتة سمعت بها» فإنك ستجده كريماً معك إلى أبعد الحدود، وسيروي لك آخر نكتة سمع بها، وأنت بدورك سترويها لغيرك، وغيرك سينقلها إلى آخر وهلمجرا... حتى ينتقل هذا المضحك إلى أصقاع الدنيا.

ما معنى هذا الاتفاق التلقائي بين البشر وحتى بين الشعوب عموماً؟ هل لأنه ليس للضحك ثمناً؟ لا أعتقد ذلك، فالإنسان مستعد أن يدفع الأموال كي يضحك، وأن يقطع مسافات بعيدة، وأن يقف ساعات

وساعات في الطوابير من أجل أن يشاهد فيلماً أو مسرحية ضاحكة، كما أنه سيسعى جاهداً للحصول على كتاب مضحك كان قد سمع به.

وكم ستكون خيبته هذا الإنسان كبيرة إن كان ذلك الذي شاهده أو قرأه لم يثر فيه الضحك المطلوب.

فالضحك في رأي - وأنا لا أدعي الفهم بعلم النفس البشري ــ هو بذرة التحرر من الأنانية، هو شكل راق من أشكال التواصل بين الناس في بلد ما، وحتى بين شعوب الأرض عموماً، خاصة إذا كان ذلك المضحك من النوع الراقي غير المبتذل.

فالضحك الراقي، النابع من عمق الكآبة يزرع الثقة بالنفس، يحررها من تلك الكآبة التي هي منشار الحياة.

أعتقد أن الذي قال: «اضحك، تضحك لك الدنيا» مصيب إلى حد كبير، فنحن لو بقينا متجهمي الوجوه بسبب آلامنا وهمومنا ومشاكلنا اليومية، فإن ذلك لن يفيدنا بشيء، إلا في زيادة تجاعيد وجوهنا وحتى أرواحنا، ثم نموت قبل أواننا، تاركين خلفنا أحمالاً من المشاكل والهموم دونما حل.

أن نواجه قسوة الحياة بالضحك والسخرية، فهذا يعني أننا امتلكنا سلاحاً جباراً هو الأمضى دائماً، وعزيز نيسين الساخر خير مثال لما ذكرت.

إن من يطلع على ذكرياته في المنفى، سيدرك بصورة جلية، كم كانت حياته مليئة بالنكبات والمآسي والآلام، كم من المرات تهدمت حياته فعاد يبنيها من جديد غير متوقف عن عطاءاته الساخرة حتى آخر لحظة في حياته.

إن القارئ سيندهش حتماً، عندما يدرك أن عزيز نيسين بالرغم من شقائه والبؤس الذي عاش فيه، والأعوام الستة التي قضاها في السجون بسبب مواقفه الساخرة المبدئية، قد ترك لعشاق الأدب الساخر أثراً قوامه أكثر من ألفي قصة وحكايه، وسبع روايات ساخرة، وكتب مذكراته في مجلدين، وألف مجموعتين شعريتين والعديد من المسرحيات الساخرة، ناهيك عن الكتابة للصحافة والمجلات التي استمر بها حتى آخر أيامه.

لعزيز نيسين دوافعه الخاصة، وعالم قضاياه الخاص، وبطله المحبوب، وزاوية النظر المحددة للظواهر الحياتية.

و: «بديهة الضحك» لا تخون عزيز نيسين أبداً، فالضحك عنده حاضر دائماً وفي كل زمان ومكان.

وقصصه الساخرة هي قبل أي شيء عزيز نفسه، عالم أحاسيسه وتجربته الحياتية.

إن أكثر ما يدهشك به، هو إحساسه الخاص بمسؤوليته ككاتب عن كل ما يجري في حياة ومصير وطنه تركيا.

كان عزيز نيسين يسعى دائماً وبشكل أعمق لفهم مصاعب ظروف الشعب التركي الراهنة، وهنا يكمن منبع إبداعه.

لقد أفصح عزيز نيسين عن رأي بارز في مقدمة لكتابه «لو كنت امرأة» قائلاً: «لمدة أعوام كثيرة وأنا أعمل في حقل الأدب الساخر، منتهجاً طريق الكتاب الساخرين الشعبيين، مستمداً قوتي من هذا المنبع العظيم، إنني أسعى في قصصي وحكاياتي لعرض الطوبرغرافيا الاجتماعية لوطني، إن واجب المثقف أن يضيء الحاضر والمستقبل، وأنا بكل ما أملكه من قوة أحاول القيام بهذا الواجب، مجبراً الناس على الضحك والتأمل، تلك هي مقاصدي، لكن هل وفقت في تحقيقها؟ الحكم ليس لي».

لقد أثبت عزيز نيسين أنه واحد من جهابذة الأدب الساخر في العالم، فقد ترجمت أعماله إلى ثلاث وعشرين لغة حيّة... كما حاز على العديد من الجوائز العالمية على قصصه الساخرة.

لم يترك عزيز نيسين ناحية من نواحي الحياة إلا وكتب عنها، وهذا عائد إلى غنى وتنوع حياته.

فقد كان ضابطاً في الجيش، وعمل مصوراً فوتوغرافياً ورساماً وبقالاً وصحفياً وبائع كتب... وأسلوب عزيز نيسين غاية في البساطة والعمق أيضاً، وهو غالباً ما يسخر من نفسه أولاً.

عبد اللطيف عبد الحميد

مقدمة المؤلف

أعزائي القراء: كتابي هذا ليس رواية نثرية. ففي السرد النثري والقصص مثلاً، يمكن طبعاً إيجاد الملامح الخاصة بالمؤلف. لكن هذه الملامح غالباً ما تكون مبهمة.

إن الذكريات المقدمة لكم، إنما هي جزء من حياتي الحقيقية. ولن أقول بأن أشهر المنفى بقيت في ذاكرتي كشيء صعب وثقيل جداً. لأن ما غاص في عمق الماضي هو أكثره مرارة، ويشبه الثمرة على الغصن التي تزداد حلاوتها مع مرور الزمن.

إنني أضحك أحياناً، عندما أعود بذاكرتي إلى تلك الأيام. ويضحك أولئك الذين أتحدث لهم وعنهم. وبودي لو أنكم تضحكون أنتم أيضاً.

وليس باستطاعتي إلا أن اعترف، بأن حنيننا يستبد بروحي إلى تلك الأيام. وبغض النظر عن أننا كنا شهود تلك الأيام، فإننا نضحك من أنفسنا ومن تلك الأشياء التي أقلقتنا آنذاك. وبالرغم من ذلك، فإنه يسعدني أن أدرك، بأنني فعلت كل ما بوسعي لكي يندثر وإلى الأبد، ذلك الذي ناضلنا ضده.

كان آباؤنا يحدثوننا بفخر عن مآثرهم وعن الحروب التي شاركوا فيها دفاعاً عن الوطن. أما نحن فلا نملك مثل هذه الذكريات.

إذ باستطاعتنا أن نحدث أطفالنا عن المنفى والسجون والشرطة والمحاكم والتحقيقات فقط. والغريب في الأمر، أنني لست حاقداً على

أولئك الذين عذبونا واحتقرونا. ربما من واجبي أن أشكرهم، لأنني خرجت من التعذيب أكثر صلابة، ولأنني صقلت روحي في النضال ضدهم.

ولدت في أسرة فقيرة. وبصعوبة بالغة استطعت الخروج من عالم الجهل. كان حلمي لسنوات طويلة أن أسافر إلى أوروبا للدراسة. لكن المنفى حل مكان الجامعات الأوروبية. في هذا الكتاب مقتطفات موحدة لذكرياتي، كما أنني لم أذكر فيها كل ما جرى معي. لأنني لا أريد أن يتكون لدى القارئ انطباع، وكأنني كتبت هذه الذكريات سعيا لحشر أنفي قائلاً له: «انظر كيف عشت في المنفى...» إذ لو ينبعث الماضي في الذاكرة، فإن عيشتي اللاانسانية، وآلامي، وأحزاني ستبدو سخيفة كمشوار سياحي فاشل، فيما لو قورنت مع ما يمكننا أن نجده في تاريخنا من الشهداء العظام والمنفيين.

أن تفكر، أن تحب، أن تضحك بغض النظر عن أي شيء، هو أهم ما في الإنسان، أما ما تبقى فهو كذب ونفاق.

1

شخصية هامة

باستطاعتي أن أؤكد، أنني استقبلت استقبالاً حاراً لدى وصولي إلى «بورصا». لأن الباص الذي أقلني برفقة دركيين إلى المدينة، لم يتوقف هكذا في أي مكان، بل في ذلك المكان حيث يبدأ المنتزه العام المعبد. وكنت آخر من خرج. من الباص، لأنني كنت مكبلا بالأصفاد ولم أستطع طويلاً أن أضع على ظهري حزمة حوائجي الملفوفة ببطانية عتيقة دونما مساعدة. كان بإمكاني أن أحرك أصابعي بحرية «وأنني أحمد الله على ذلك» ولهذا تمكنت من التشبث بالحبل الذي ربطت به الحزمة.

وعندما تحركنا في الشارع، كان الدركيان واحداً على يميني والآخر على يساري، إذ ذاك فقط، لاحظت أن ثمة مهرجانا في المدينة. فقد عُلقت الإعلام على كل البيوت، ومن النوافذ تدلت مصابيح بألوان مختلفة. وعلى طول المنتزه اصطف تلاميذ المدارس.

وعند بناية كبيرة «علمت فيما بعد، أن هذه البناية تدعى بقصر الشعب» اجتمع عدد كبير من الناس.

ـ اسمع يا طيب، أليس من الأفضل لنا أن نخرج من هذا الشارع، وننعطف إلى أحد الأزقة الهادئة؟.

ـ لا أزقة جانبية، إلى الأمام!.

قال ذلك وقد خبط الحزمة على ظهري.

اقتربنا من الساحة، حيث يشمخ النصب التذكاري لأتاتورك، ومن مكبرات الصوت، كانت المارشات الحماسية ترعد بلا توقف.

ـ يا صديقـي، أن يـدي مكبلتـان، والحزمـة علـى ظهـري، ولـو كنـت جبريل، سيدنا الملاك المجنح بذاته، فلن أسـتطيع الإفـلات منـك، فـأنت ماهر في إطلاق النـار، لذلـك، اعمـل معروفـاً وانعطـف إلى الزقـاق الجـانبي حيث الهدوء.

لكن اقتراحي لم يلق عنده أية ردة فعل.

وفي وسط الشارع، شيد قوس النصر المصنوع مـن أغصـان وأوراق البلـوط. وما إن اقتربنا منه، حتى رعدت الجوقة العسكرية. وكان الطبال يقرع على طبله بأقصى مـا اسـتطاع مـن قـوة. وأبـى الـدم الانكشـاري إلا أن يغلـي في عروقي بفعل فرقعة وهدير الضربات الجسورة على الطبل، فقـد تمنيـت أن أندفع زاعقاً إلى «الأمام»، نحو العدو الوهمي.

يا الله... ما هذا الهراء... لقد نسيت بأن يدي مكبلتان بإحكام... أيـة مناسبة هي اليوم؟ هل هو عيد النصر؟ لا... ربما عيد الأطفال؟ أم أنه اليـوم الأخير لمكافحة مرض السل؟ أم أنه اختتام مؤتمـر الحركـة الاقتصاديـة؟ لا أظن... لكن ما الذي دفع سكان بورصا المجيدين لكي يتدفقوا إلى الشوارع؟ هل يعقل أنهم أتوا لاستقبالي؟

أما صاحبيَّ الدركيان، فهما الآخران أيضاً، لم يكونا مجرد خشبتين بلا إحسـاس. فهمـا لـدى سماعهمـا للمـارش، اتخـذا وضعيـة الوقـار، وراحـا يمشيان بخطى عسكرية منتظمة، منضمين إلى الموكب الاحتفالي.

أما أنا، فتباطأت مع حزمتي متأخراً عنهما.

ـ إلى.... الأمام.... سر ـ زعق أحد الدركيين.

وراحـت صفـوف التلاميـذ، وأعضـاء النـوادي الرياضيـة، واتحـاد الحرفيين، يمرون وسط تصفيق حار احتفاء بهم. أما نحن، فأكملنا الموكـب الاحتفالي.

قلت لنفسي: «لا يمكن أن تهرب من مصيرك إلى زقاق جانبي، وبما أنه كتب علي أن يراني أهل بورصـا، فدعهـم يرونـي بكـل حسـني وجمـالي». رفعت الحزمة إلى فوق قليلاً، ورحت أخطو مع خطوات الدركيين، الجوقـة تعزف، والطبل يرعد، وأرجلنا تخبط الأرض: هوب ـ هاب هوب ـ هاب..

لا أدري كيف كان إحساس الدركيين، أما أنا، فسرت بذلك الحماس، لدرجة بدت لي بورصا وكأنها تترنح تحت خطواتي.

سبقتنا شاحنة اتحاد عمال النسيج، وراحت الجموع تصفق مرة أخرى وهي تصرخ: أي!... عمال النسيج!... أي!... عمال النسيج!... بعد ذلك، ظهرت أنا، والدركيان واحد على يميني والآخر على يساري، ونحن نسير بخطوات استعراضية.

بدأت الجموع تصرخ: ها هو آت... إنه هو... هو... هو...

ومن أين لي أن أدري، لمن كانوا يقولون هذه الكلمات. ومع اقترابنا من قصر الشعب، انتفضت الجموع تصفق لنا بحرارة.

لقد سرنا كل الشارع حتى الجسر بشكل لا عيب فيه. وتعبت من الخطوات الإوزيّة. كان العرق يتصبب في ظهري كالسواقي من الخوف والاضطراب.

ـ خبطنا الأرض جيداً ـ قال أحد الدركيين:

ـ جيداً، خبطناها.

علمت فيما بعد، أن بورصا كانت تحتفل في ذلك اليوم، بذكرى وصول شخصية هامة جداً من انقرة. لكن الشخصية لم تصل. بيد أن محسوبكم هو الذي وصل من استامبول.

وكيف لا يمكنني أن أؤكد، بأنني استقبلت استقبالاً حاراً في بورصا؟

2

أين كنت؟

أخيراً وصلنا إلى المخفر...

- الرئيس غير موجود - قال أحد الدرك المناوبين - ونحن لسنا قادرين على استلام المنفي. رميت الحزمة على الأرض، ورحت أتنفس الصعداء، ماسحاً العرق عن جبيني، لو أنهم فكوا الأصفاد من يدي، لاعتبرت نفسي سعيداً تماماً.

قلت للدركيين: لقد تخدرت يداي... لو تحلان الجنزير قليلاً...

وبناء على طلبي حل أحد الدركيين حلقة واحدة من الجنزير. أما الآخر، فكان أكثر إنسانية، إذ نقل الأصفاد من ذراعي إلى رسغي، وأصبح باستطاعتي الآن أن آكل بحرية.

قبل سفرنا إلى استامبول، حذرت السلطات الدركيين: «كونا حذرين، وإلا فإن رأسيكما سيقطعان إن هرب».

وفي «بورصا» قرأت في الجريدة المحلية المعلقة على الجدار، أن لص الفنادق «جميل» استطاع تسعة وتسعين مرة أن يخدع الشرطة ويهرب.

لو تحلان الوثاق قليلاً... لدي رغبة في قضاء حاجة ما...

طلبت من الدركيين، لكنهما لم يردا علي.

ومن المقهى الواقع قرب المخفر، كانت تنطلق من المذياع أغنية «القلب غير موافق».

أخيراً عاد رئيس القسم من الغداء، ولم تصدق عيناي ما رأته.

يا للمصادفة... إنه بهجت هوه، زميلي في الكلية الحربية يقف أمامي الآن.

كان بهجت هوه، هزّالاً على الدوام فكم مـن القصـص المضحكـة جـرت معه.

لن أنس أبداً، كيف دعاه مدرس الجغرافيا ذات مرة.

ـ أرني حدود فرنسا على الخريطة.

أجاب بهجت: يميناً ألمانياً، يساراً البحر، بريطانيا من فـوق، والبحـر من تحت.

ـ من أين تشرق وتغرب الشمس؟.

نظر بهجـت إلى النـافذة وأجـاب تشـرق فـوق حيـدر باشـا(*)، وتغـرب خلف سماتيا(*).

كان الجميع يعرف، أن بهجت لم يكن أقل عبقرية في الكيمياء أيضاً.

فقد طرح عليه مدرس المادة أبسط الأسئلة.

ـ أكتب صيغة الماء.

وبدون أي تفكير، كتب بهجت على السبورة الأحرف التالية:

م ـ ا ـ ء.

غضب المدرس: قلت لك، ما هي الصيغة الكيميائية للماء؟

حدق بهجت بالمدرس كـالحمل الوديـع، وأشـفق المـدرس عليـه وكتـب على السبورة «H_2O».

ثم طلب من بهجت: أكتب صيغة تفاعل الماء.

حاول بهجت، لكنه لم يستطيع فعل ذلك عندئذ كتب المدرس: **HOH** «آش ـ أو ـ آش» وطلب منه قراءة ذلك.

تنفس بهجت ولفظ: هوه...

ومنذ ذلك اليوم، أصبح الجميع يسمونه: بهجت «هوه».

(*) حيدر باشا وسمايتا منطقتان في استامبول.

وعندما رأيت بهجت هوه في المخفر، ابتسمت له، وأنا أصدر صلصلة من الجنزير ثم تحركت للقائه، لكن بهجت هوه أشاح بوجهه عني سائلاً الدرك: من هذا؟.

ـ منفي... أتينا به من استامبول؟.

قلت محدقاً بعيني بهجت: هوه... ما هذا الحر!؟.

أما هو فراح يوقع على ورقة استلامي قائلاً: خذوه إلى إدارة الأمن.

فيما بعد، أي عندما حلت الديمقراطية في تركيا، أصبح بهجت زميلي، السابق في الكلية الحربية شخصية هامة، وكان بالإمكان قراءة اسمه على صفحات الجرائد. وبعد ذلك بعدة سنوات، أي بعد الانقلاب العسكري الجديد، التقيت ببهجت في استامبول على جسر غالات، يومها عرفني فوراً واندفع إليّ يعانقني وحسب رأيه، كانت الفوضى تعم البلد، فقد اشتكى لي: أننا لن نصبح أناساً حقيقيين أبداً.

سألته: ومن تكون حضرتكم!؟ ثم تابعت سيري.

وهكذا... خرجنا من المخفر إلى إدارة الأمن. وهناك راح رئيس القسم الأعلى، وهو رجل متوسط السن، يقرأ الوثيقة المقدمة له من قبل الدركيين. كان واضحاً من تعابير وجهه، إنه يعرف اسمي. التفت إلي قائلاً:

مؤسف... حكيم زمانك... وهل تظن أنك وحدك تريد إنقاذ البلد؟.

أجبت: لم أفكر هكذا أبداً... زد على ذلك، أنه لا يوجد والحمد لله، ما يمكن إنقاذه في بلدنا.

أشار إلى تمثال أتاتورك من خلال النافذة وقال: أين كنت، عندما أنقذ البلد؟.

كان من المخجل بالنسبة لي أن أصمت، فأجبت: كان عمري آنذاك ستة أعوام، أما أنت فأين كنت؟.

«تعقيب»

أنهيت فترة المنفى في بورصا عام ١٩٤٧، وبعد مرور عشرين عاماً، تم اعتقالي في الرابع من تموز عام ١٩٦٧، بوشاية من أحد المخبرين، عندما كنت عائداً إلى البيت من رحلة في البلد.

وخلال ثماني ساعات حققت الشرطة معي. وقد اعتبر أحد الذين حققوا معي، أن ما ذكرته من حوادث مضحكة عن «إجابات زميلي «بهجت هوه» في دروس الكيمياء» يعتبر إهانة لكل ضباط الجندرمة التركية. أما فيما يتعلق بترجمة أعمالي إلى اللغات الأجنبية، فإن المسائل الداخلية لتركيا، تصبح معروفة خارج حدودها «لهذا السبب، يعكف الأجانب على ترجمتها» ويؤكدون بأنني مرتد، وأنني أشوه سمعة بلدي في نظر الأجانب.

هكذا انقلبت المسألة إذن!.

لكن، هل كان يخطر ببالي، أثناء الدراسة في الكلية الحربية، أن بهجت سيختار الشرطة مهنة له، وإنه سيصبح نموذجاً لجهلهم؟.

إن رئيس القسم الذي حقق معي، ذكر مثلاً: أن سويسرا بلد اشتراكي غني، لأن لديه مستعمرات كثيرة.

فهل يمكن اعتبار، كل ضباط الجندرمة التركية، جهلة في التاريخ والجغرافيا؟.

3

الكرة الملتهبة

وهكذا تخلصت مني الشرطة، لترميني في إدارة أخرى. وكان ذلك بالنسبة لي سعادة. لأنهم فكوا الأصفاد من يديَّ. وأصبح باستطاعتي الآن، أن أمشي واستخدم يديَّ بحرية. لا.. ليس تماماً، لأن الحزمة لا زالت على كتفي. كما أن شرطياً واحداً فقط، وفي لباس مدني، أصبح يرافقني، وهو سيسلمني الآن للمناوب في القسم الآخر. كل يوم، صباحاً ومساء، سأكون ملزماً بالحضور إلى القسم لأوقع، مؤكداً بذلك، أنني لم أذهب خارج بورصا. شيء يدعو للسخرية... أليس كذلك؟.

إذاً كانوا قد أحضروني إلى بورصا مكبلاً بالأصفاد، وتحت حراسة دركيين مسلحين، فلماذا إذاً، أراد الموظف الذي مثلت أمامه، أخذ الوثائق المتعلقة بي من على طاولته، ووضعها على طاولة موظف آخر؟ هل حقاً، أن شخصيتي لم تعد خطيرة إلى هذا الحد؟.

لا تبحثوا عن جواب على هذه «اللماذا» وعلى أشياء أخرى أيضاً، لكن إذا أردنا التفكير، فباستطاعتنا أن نصل إلى جوهر هذه الإجراءات البيروقراطية: إنه الخوف من المسؤولية.

فكل الموظفين عموماً، وخاصة المراجع الرسمية، يريدون التهرب من المسؤولية، ورفع العبء عنهم.

نحن كبلنا هذا الغريب بالأصفاد، وأرسلنا معه حارساً. رميناه بعيداً عنا، تخلصنا منه والحمد لله... أما فيما بعد... فإلى جهنم. المسؤولية بالنسبة للبيروقراطي كالكرة الملتهبة. فلكي لا تحرق يديك، يجب أن تصد هذه الكرة بأسرع ما يمكن، وأن ترميها للآخر... وبالضرورة في يديه. فإذا،

لا سمح الله، لم تقع الكرة في الهدف، فـإنك ستخل بـالواجب الوظيفـي. والواجب الوظيفي ينبغي عدم الإخلال بـه. لأنـه مقدس. إن الـذي كبلـني بالأصفـاد، وسـلمني لإدارة الأمـن، تخلـص مـن الكـرة الملتهبــة، وتنفــس بحرية. والمهمة الآن ـ رمي الكرة الملتهبـة بعيـداً ـ تقـع علـى عـاتق إدارة الأمن.

قال الشرطي لمفوض القسم وهو يشير نحوي: ها هو المنفي... وسيسجل في قسمكم.

صرخ المفوض: لماذا في قسمنا بالذات، ألا توجد أقسام أخرى؟.

أجاب مرافقي: لا أعرف... إن سيادة رئيس القسم أرسله إلى هنا.

ـ ما كان ينقصنا سوى المنفيين، ولدينا من الأعمال ما يكفينا!.

سلم مرافقي للمفوض وثائق ما. وهو بذلك، قام بواجبه المقدس، وتنفس بحرية.

ـ لماذا أرسلوك إليّ؟ ـ قال المفوض بعصبية.

وعندما أدرك، بأنني لست معنياً بالرد على سؤاله، اضطـر أن يخـرس. ثم وضع يده في فمه وأخذ يفكر: ما العمل؟.

ـ أين ستسكن؟.

ـ لا أدري بعد.

ـ الله..! الله..! إذا كنت نفسك لا تدري، فمن أين لي أن أعرف؟.

ـ إنـني للمـرة الأولى في بورصـا، ولا أعـرف أيـن تقـع الفنـادق، وفي أي منها سأنزل.

ـ هكذا إذن.. اذهب واستفسر أولاً، وبعد ذلك سنرى إن كنت ستســكن في منطقتنا أم لا، لأنك ستسجل في القسم، الذي سـيكون فندقـك داخـلاً في إطار مهماته.

وظهرت الابتسامة على وجهه، يبدو أنه وجد سبباً لركلي بعيـداً. قـال آمراً: انصرف، وابحث لنفسك عن فندق!.

ـ حاضر سيدي ـ قلت متجهاً نحو الباب.

- إلى أين؟ زعق المفوض.

- وحدك؟.

حقاً، ولربما هربت! فإن الكرة الملتهبة لن تسقط في أيدي الآخرين. وسيخل بالواجب المقدس.

- كلف المفوض شرطياً بمرافقتي. لكن ما إن خرجنا، حتى طلب المفوض من الشرطي أن يعود. أظن أن الشرطي تلقى توجيهات بأخذي إلى فنادق بعيدة، لكي لا أظهر في هذا القسم مرة أخرى، وانطلقت يرافقني الشرطي.

- لا... هذا لا يناسبني.

إنني أبحث عن فندق رخيص. أما الشرطي فاعتقد أن الفندق لم يعجبني، بسبب حقارته، ولذلك، قادني إلى فندق أفضل.

- لا..لا.. هذا لا يناسبني.

- هل تريد أن آخذك إلى فندق «تشيليك بالاس»؟.

- إنني أبحث عن فندق رخيص. علمت فيما بعد، أن أرخص فنادق بورصا، تقع في منطقة ذلك القسم بالذات، أخيراً قررت النزول في فندق مقابل «نادي متسلقي الجبال».

وما إن رآني موظف استعلامات الفندق برفقة الشرطي حتى ارتبك، لقد سقطت الكرة الملتهبة في يديه. واستدعى على الفور صاحب الفندق. انتحى الشرطي به جانباً وهمس في أذنه. مختصر الكلام، وافق صاحب الفندق على إقامتي في فندقه. وضعت حزمتي في الغرفة، وعدت مع الشرطي إلى القسم.

قال المفوض: إن فندقك يدخل في إطار مهمات قسم آخر. وهكذا سلمني الشرطي حسب انتمائي. وسلم وثائقي.

وحصل على إيصال بذلك، ثم مضى.

وسرعان ما دعاني المفوض. وبعد فاصل قصير زعق:

- ما الذي سأفعله بك؟.

4
الاعتدال ضروري

لكي تفهموا سبب هجوم المفوض عليّ، سأرسم لكم شكلي.

لقد كان بنطالي أشبه بشيء، يجمع ما بين البيجاما والشروال. ومن كتفي تدلى معطف من قماش الكبردين، حتى الأرض. أما الكُمّان فكانا يصلان إلى ما تحت الركبتين. اعتقد أن تاجر الألبسة المستعملة، لن يدفع أكثر من عشرة ملاقط للغسيل، ثمناً لهذا المعطف. أما عنقي فكان عارياً من أية ربطة. وفيما يتعلق برأسي، فكان محلوقا حتى الصفر، كما هو الحال بالنسبة لكل المكبلين.

سأل المفوض: أين وثائقه؟.

رد الشرطي: سترسل بالبريد فيما بعد، لقد أرسلوه مع هذه الورقة.

ـ ألم يذكروا فيها سبب نفيه إلى بورصا؟.

ـ لا، سيدي المفوض.

سألني المفوض: هل أنت مهرب؟.

ـ لا، سيدي.

ـ تاجر مخدرات؟.

ـ لا.

لص؟.

ـ لا.

نفد صبر المفوض وصرخ: قل لي أخيراً، من أنت؟.

لم يستطع لساني أن يقول «كاتب»... كاتب!؟ ـ كان من الصعب جداً أن تخمن انتمائي إلى عالم الكتّاب، بسبب مكوثي الطويل في السجون.

ـ خذوه إلى حجرة المراقبة.

يا لها من تسمية!.

جلست على مقعد خشبي، وأخذت كتاباً من جيبي، ورحت اقرأ. ومن خلف الباب سمعت همساً مضطرباً.

ـ إنه يقرأ! ـ كتاباً؟. ومرة أخرى قادوني إلى المفوض، الذي كان يمج سيجارته بعمق، ثم يطلق الدخان من فمه ببطء، وهو يحدق بي من رأسي حتى أخمص قدمي.

سأل: من أية قومية؟.

ـ أنا ـ تركي.

ـ هل أنت واحد من أولئك اليونانيين، أو اليهود، أو الأرمن، الذين يدعون بأنهم أتراك. أم إنك تركي حقيقي؟ منا؟.

ـ تركي حقيقي.

ـ أنت تقول، بأنك لست لصاً، ولا نشالاً، ولا مهرباً. من أنت إذن.

اعترفت مضطراً: أنا كاتب.

وحل الصمت.

ـ ونفيت إلى بورصا؟ ـ سأل بعد ذلك.

ـ نعم، إلى بورصا.

ـ رائع... وأين ستسكن؟ هل لديك مأوى.

ـ سأعيش في الفندق.

ـ أنت ملزم كل صباح ومساء أن تأتي لتوقع هنا، في الدفتر، والآن ستذهب مع الموظف لتريه أين ستسكن. ثم تابع: أحمدُ الله، على أنني لم أكن مجتهداً في دراستي ذات يوم، وإلا لما سلمت من المصائب.

ـ الاعتدال ضروري. ضروري حتى في الدراسة. انظر كيف درست حتى الأصفاد ـ علق أحد الموظفين.

خرجنا إلى الشارع. وكانت لدي رغبة في أن أمطمط يديّ وأرتخي.

5
الركض في السهول

ليرتان ونصف ثمن المبيت في الفندق، وإن رغبت في ألا تتجمد من البرد، فما عليك إلا أن تدفع ليرة إضافية كثمن لمحروقات المدفأة، وشهر شباط أصبح على الأبواب، خمس وعشرون ليرة ـ كل ما أملكه ـ طارت خلال أسبوع، وشتاء عام ١٩٤٧ كان قاسياً جداً.

يومان مرا وأنا أتضور جوعاً. ثمة فكرة تدور في رأسي: ما هو الأسوأ بالنسبة لي، أن تطقطق أسناني من البرد أم من الجوع؟.

وعندما سيطردني صاحب الفندق سأشعر بلذة الحرّية. الضحك يستولي علّي... وكيف لا؟!.

إذ لا شيء ينقذ في وضع مثل وضعي سوى الضحك. سأخرج من الفندق... لكن إلى أين؟ وإن بقيت فمن أين لي أن أدفع ثمن المبيت به؟.

فأنا لا أملك سوى ثلاثة قروش... هل أشرب الشاي بها أم أشتري كعكة؟ الشاي يدفئ معدتي، والكعكة تُسِكتُ جوعي.

أخرج إلى الشارع. الثلج يتساقط مثل القطن المندوف... آه... لو ألتقي بأحد من معارفي. إنني أنظر في كل الوجوه العابرة، أصحاب تلك الوجوه يسيرون مسرعين. فالثلج يجعلهم يسرعون الخطى... على أية حال، هم يعرفون إلى أين يسرعون... فلديهم أعمالهم التي تنتظرهم.

هل يحدث لكم، عندما تريدون حصول أمر ما ويحصل؟ لقد كنت متعطشاً لرؤية أحد ما أعرفه، وفجأة أرى شادياً زميلي في المدرسة. فقد كان يسير باتجاهي حين التقت نظرتي بنظرته. وهو ما إن رآني حتى

استدار بزاوية قدرها ١٨٠ درجة وراح يسرع الخطى، حتى أنه بدأ يركض مبتعداً.

في الماضي، عندما كنا في المدرسة، كنا ننظم في الأماسي سباقات في الركض. في الحقيقة أن كلمة سباق مبالغ بها. فنحن ببساطة كنا نركض خلف الفتيات الخارجات من مدرستهن في منطقة قنديل[1].

كنا نركض للقاء بهن في مرفأ القرن الذهبي. إن نصف زملائنا أصبحوا بارعين في الركض. فقد كان كل واحد منا يسعى إلى أن يكون الأول في الظهور في المرفأ، لكي يلحق بالفتيات قبل أن يصعدن إلى السفينة.

وشادي هذا، كان أقوى وأخطر خصومي في الركض، إذ كان يفعل كل ما في وسعه حتى يسبقني.

والآن، عندما استدار وراح يركض صرخت في إثره:

ـ شادي!.

لكنه راح يركض مسرعاً. وأنا كذلك... وارتفاع الثلج يصل حتى الركب لدرجة كان السير بذاته صعباً... أما أنا فتعثرت وسقطت... وشادي يركض مبتعداً.

ـ شادي!.

أما هو فينعطف إلى اليمين، إلى شارع مقفر، وأنا لازلت أتعقبه. ولكي ألحق به رحت أركض أيضاً.

التفت شادي إليّ ورآني غير بعيد عنه، فراح يزيد من سرعته.

أمر لا يصدق!!...

هو يركض وأنا أصرخ به: شادي!!.

لقد رأيت في هذا المكان النائي شخصاً أعرفه فهل أدعه يفلت مني؟.

أتابع الركض خلفه... وشادي ينعطف مرة أخرى وأنا خلفه لازلت.

ها هو يصعد إلى تلة ـ وأنا خلفه طبعاً ـ ومن وقت لآخر أصرخ منادياً باسمه.

---

[1] قنديل: منطقة في استامبول.

أما هو فيلتفت إليّ ثم يتابع الركض. في الحقيقة هو لا يركض بل يهرب مني، وأنا لا أركض بل أتعقبه.

ها نحن الآن في أطراف «بورصا» لقد انتهت الطرقات. نصعد إلى التلة... بعد قليل ستظهر أمامنا «أولضات»[٢].

ساقاي تغوصان في الثلج، أعتقد أنني فقدت عقلي. يخيل إلي الآن، أنني أركض إلى المرفأ للقاء بفتيات مدرسة قنديل. فجأة تلتوي ساقي وأسقط في الثلج دفعة واحدة. لقد خارت قواي ولا أستطيع النهوض. إنني أستلقي على الثلج وأنظر إلى شادي الذي راح يبتعد.

إنه على بعد مئة متر فوق التلة، يضحك ملوحاً لي بيديه كما يلوح المسافرون لذويهم.

ـ أيها السافل ـ أهمس له ـ لولا حالتي هذه لما استطعت الإفلات مني، لكن أحمد الله على أنني جائع ولم أذق شيئاً منذ يومين.

أخيراً نهضت من الثلج... مترنحاً رحت أسير على طريق اسفلتي. كان حلمي الوحيد أن أصل إلى أي مقهى لشرب الشاي. وهنا أدركت أنني أثناء الركض فقدت قرشين من قروشي الثلاثة تلك. فقد كان ثمة ثقب في جيب بنطالي.

إن خبر نفيي إلى بورصا انتشر بسرعة البرق، فالناس هنا بدأوا يلقون التحية عليّ من بعيد وفي الأزقة الخاوية فقط.

---

[٢] أولضات: أعلى قمة جبلية إذ يصل ارتفاعها إلى «٢٥٤٣» متر تقع في الجزء البحري شمال غرب الأناضول.

6

رسام مبتدئ

اعتقد أن مظهر نابليون بعد فراره من موسكو، لم يكن يرثى له، كمظهري. فقد تجاوزت عتبة الفندق وأنا في حالة تامة من التمزق والارتباك. وليس باستطاعتي إلا أن أضحك عندما أتذكر ذلك اليوم.

إن مشاهدة إنسان، يسقط بسبب حركة خرقاء، غالباً ما يثير الضحك. وليس غريباً، أن المهرجين في السيرك، يتعثرون ثم يسقطون. فكلما صعد الإنسان إلى الأعلى: كلما ارتقت مكانته، وكلما أصبح سقوطه مضحكاً أكثر، ولو أن ذلك يحصل مع إنسان عادي، فإن المارة، سيأسفون عليه، ثم يتابعون سيرهم. لكن ماذا سيحدث، لو أن موظفاً هاماً تشقلب على قفاه أمام عرض عسكري؟. المسألة واضحة: ستنفجر من الضحك. وفيما يتعلق بي، فأنا أحاول دائماً أن أتمالك أعصابي. لكنني أأسف دائماً، على سيئي الحظ. أما إذا أنا وقعت، فإنني اضحك من أعماقي حتى الشبع.

وعندما وصلت إلى درج الفندق، رحت أصعد مترنحاً من جانب لآخر.

- مرحبا. سمعت أحدهم يسلم.

- مرحبا.

أجبت وأنا انظر إلى شخص مجهول، له نفس عمري تقريباً. قال وهو يفتح باب غرفته: هل باستطاعتي أن أدعوكم لزيارتي؟ وهل باستطاعتي إلا أن أزوركم؟ إذ الجوع، والبرد، والتعب، أفقدوني الإحساس بأنني أقف على الساقين.

ربما، سيضيّفني الشاي!... أو قد يطعمني!...

وفي غرفته، كان الحطب يفرقع في المدفأة. ومع الدفء، بدأت القشعريرة تغزو جسمي كله. أعتقد أنني كنت أشبه بدجاجة مبتلة شعثاء. كانت غرفته المريحة، مزينة باللوحات، وكانت علب الألوان، والريش، والبراويز، والقماش المثبت على بعض منها، متناثرة بشكل فوضوي.

قدم نفسه: أنا رسام، إنني أعرفكم غيابياً، وأنا واحد من المعجبين والمتحمسين لكم.

بصعوبة بالغة، استطعت الجلوس على الكرسي.

سأل: حالتكم سيئة؟.

ـ نعم... إنها القشعريرة...

اندفع الرسام إلى الخزانة، وأخرج منها زجاجة عرق وسكب كأساً مع الماء. ونصحني وهو يضع الكأس المليء أمامي: إنه دواء رائع ضد الرشح... مايسترو... إن مخاطبتي بـ«المايسترو» وأنا في تلك الحالة، كان كالزبدة في القلب. لدرجة أنني كنت مستعداً، أن أشرب ليس العرق فحسب، بل حتى الملح الإنكليزي وزيت الخروع. لكن لو يطعمني قليلاً، ولو بضع حبات من الزيتون فقط. أما هو، فكان يتحدث بلا توقف، عن إعجابه بي، فقد قرأ كل ما كتبته. وإنه يهيم بالمناضلين من أجل المثل الخيرة، والمساواة. آه... ما أكثر الهائمين عندنا... لكنك مجبر أن تناضل لوحدك، وسبب ذلك على ما أظن، هو أن مصارعة الثيران غير مسموح بها عندنا.

فالناس يعجبهم متابعة المعركة بين الثور الهائج والمصارع. وهم يتظاهرون، أنهم يتمنون النصر لمصارع الثيران. لكن ذلك، ليس إلا نفاقاً. فهم في أعماقهم، ليسوا ضد أن يمزقه الثور إلى نتف. لكن، وبما أن مصارعة الثيران غير واردة عندنا، فإن الناس يستعيضون عن ذلك، بمشاهد أخرى لسفك الدماء. والاستعاضة موجودة.

ـ إنني أهيم بالمناضلين البواسل ـ زعق الرسام.

تبين أن والد الرسام، كان مناضلاً أيضاً، في منظمة «الأتـراك الشـباب». عجباً!.. هل هناك أب واحد في تركيا، إلا وكان «شبيبياً» أو «اتحاديـاً» أو حارب في صفوف جيش التحرير الوطني، أو كان قد أنقذ البلد، علـى حـد زعم أولاده؟ رفع الرسام الكأس. وأنا كذلـك. وقرعنـا الكأسين. وشـربنا... واشتعلت النار في أحشائي... ثـم راحـت تنتقـل إلى كـل أعضـاء جسـمي، حتى اصطدمت أخيراً برأسي.

والرسام كان يرش قائلاً: «مبـاضىء... مبـاضىء...» وكلمـة «مبـاضىء» كانت تعتبر شياكة وأبهة على ما يبدو.

- إنني أهيم بالناس «المبضئين»... بصحتكم مايسترو!..

ونشرب.

- يجـب علـى الإنسـان أن يكـون «مبضئـي»... ولكنكـم لا تشـربون... بصحتكم...

شربنا الكأس الثالث... ولا حبة زيتـون حتـى الآن. إننـا «نمـوّز» علـى «المباضىء».

«المباضىء» هي الأساس في الحياة مايسترو.. وعلى الإنسان ألا يتنازل عن «مباضئه» أبداً.

ما عدت أذكر، كم من الكؤوس شربت. أذكر فقط، أنـني صعـدت علـى السلم وكأنني أصعد في الضبـاب. وارتميـت أمـام بـاب غرفـتي وأنـا أجعـر كالبقرة. وبقيت أتقيأ روحي بفعل تلك «المـازة» «المبضئيـة» الليـل كلـه. إن معدتي الفارغة، لم تتحمل الصراع الدموي مع «المباضىء»!.

7

موقف حساس

ـ إشعار استلام لكم. ـ قال موظف الاستعلامات في الفندق.

ـ إشعار استلام؟.

من يا ترى باستطاعته إرسال النقود لي؟ فأهلي في استانبول ينتظرونها مني!... خطفت البطاقة الحمراء من يد موظف الاستعلامات وهرعت إلى البريد.

يا الله... من أرسل النقود لي؟.

إذا كان الفاعل هو أبي، فالأفضل لي أن أطمر رأسي في التراب. فأنا حتى هذا العمر. لم أفعل شيئاً صالحاً لأجله. هل يعقل، أن أسرتي هي الفاعلة؟... سيكون أسوأ... يجب أن أعيد الحوالة البريدية لهم. ويجب أن أكتب لهم بأنني لست بحاجة إلى أي شيء.

أم أن معجزة حصلت، وفكر أحدهم بإعادة الديون لي؟.

إن المدينين لي كثيرون، وباستطاعتي أن أعيش سنتين كاملتين على الديون المستردة بكل بساطة.

ـ حوالة بريدية.

قلت وأنا أسلم البطاقة الحمراء عبر الكوة.

نظر الموظف إلى البطاقة وقال: إنك لم تقرأها حتى النهاية، وهي لست حوالة، بل طرد بريدي. استلمه في الكوة المقابلة. ثمة «صديق عزيز» أرسل لي ثلاث نسخ لكتاب واحد من استامبول. وبسبب هذا الكتاب، وضعت في السجن، ثم نفيت إلى بورصا. كم كرهت هذه الكتب فوراً. لقد أردت تمزيقها صفحة تلو الأخرى. لكن وحيا هبط فوق رأسي.

ففي بورصا، يوجد محل كبير لبيع الكتب، كان صاحبه أحد المشتركين في مجلاتي، التي كنت أصدرها. وقد عرفت اسم صاحب المحل من الواجهة. هاهو اسم آخر كبير لأحد معارفي في هذه المدينة. ماذا لو أقترح عليه شراء هذه الكتب؟.

وقفت أمام المحل، ورحت أراقب واجهته. نظرت إلى داخله، لكنني لم أتجاسر على الدخول. رحت أخطو إلى الأمام وإلى الوراء. مرة أخرى نظرت إلى داخله عبر الواجهة.

ومن جديد بدأت أخطو إلى الأمام والوراء.

ـ لا... لن يكون باستطاعتي تجاوز عتبة المحل.

يخيل إلي، أنه مكتوب على وجهي، بأنني جائع على نحو مخيف، وإنني لا أملك قرشاً واحداً. لازلت أمشي للأمام وللوراء وأنا أحاول تصنع الوقاحة. لكن ما إن أقترب من باب المحل، حتى يهوي قلبي في كعبّي، وأتراجع بسرعة ثم أعود لأتمشي متعجرفاً أمام الواجهة.

أنا لا ألتمس الشفقة. وأيٍ إنسان معرض لمثل هذه الظروف. علي أن أبيع ثلاثة كتب جديدة تماماً... حتى أن صفحاتها لازالت غير مقطعة. ما العيب في ذلك؟ يا لي من ضعيف؟.

كما أن سعر هذه الكتب مدون عليها. ست ليرات ثمن الثلاثة. ليدفع ليرتين فقط.. فقط ليرتين.

أتقدم خطوة... إن المرعب هو تجاوز العتبة، وفيما بعد تصبح الأمور سهلة. ها أنذا أقتراب من الباب... و...أتوقف كالمسمر. ـ أريد ليرتين فقط.. تشجع. ليرتين... بل صحنين من الفول... بل ثلاثة وصحن رز أيضاً... تشجع!.

وحل المساء. ورأسي يدور من المشي أمام المحل. يبدو إنك لو تربط على رقبتك حجراً، وتقذف بنفسك إلى البحر سيكون أسهل من ذلك. كان صاحب المحل مشغولاً بزبائنه، ولم أفهم عما كانوا يتحدثون. لكن سيداً في ثياب أنيقة قال لصاحب المحل: من الصعب عليك في تركيا أن تكسب المال، لكن من السهل جداً أن تصبح ثرياً.

قال صاحب المحل مؤكداً: بـالضبط.. إن يهودياً قـال لي، إنـه عـانى الكثير قبل أن يتمكن من كسب ألفي ليرة... لكنـه نفسـه لا يـدري كيـف أصبح ثرياً فيما بعد.

لازلت انتظر خروج الزبائن من المحل، مقلباً الكتاب تلـو الأخـر. لكـن الزبائن لا ينقصون. فمـا إن يخـرج واحـد، حتـى يدخـل اثنـان. مـا الـذي سيقوله صاحب المحـل، عندمـا سـأقدم نفسـي لـه؟ إذ أن الجرائـد كتبـت عني بشكل مرعب، لدرجة أنني أصبحت ارتعب من نفسي.

أخيراً بقينا لوحدنا.

ـ تفضل... أهلاً وسهلاً.

دعاني بحركة عريضة، الشاب الطويل، صاحب المحل.

قدمت نفسي كناشر لمجلة «ماركو باشا» الاسبوعية.

ـ آه... هذا أنت؟.

ـ نعم... وقد أرسلت لك العدد الأخير.

ـ نعم... وهل أتيت إلى بورصا لتستحم في ينابيعها الحارة؟ لكنـه ليـس فصل الينابيع الآن...

ـ لا.

ـ أما إنك أتيت لتتمتع بهضاب أولـوداغ ولتمـارس الـتزلج؟ في الحقيقـة إنه فصل الـتزلج... في أي فندق نزلـت. في «أبيـك بـالاس» أم في «تشـيلك بالاس»؟.

ابتسمت... والابتسامة هي القناع الأفضل لكي تخفي حالتك الحقيقية.

ـ لا يوجد مكان أفضل مـن بورصـا للاستجمام.. لا شـك إنـك تقضـي أوقاتك هنا بشكل ممتع... وهل ستبقى هنا طويلاً؟.

ـ أربعة أشهر وعشرة أيام.

لم يفهم تاجر الكتب لـمـاذا العشـرة أيـام تلـك. فأعـاد السـؤال مدهشـاً: أربعة أشهر وعشرة أيام!؟.

ـ هكذا العقوبة... فأنا منفي في بورصا.

ـ منفي!؟.

ـ هكذا بالضبط.

وضعت كتبي على الطاولة. نظر إليها صاحب المحل وقال: أوه... منذ فترة طويلة وأنا أبحث عن هذا الكتاب... هل تسمح لي بمطالعته... وسأعيده لك بعد يومين.

ـ تفضل...ولو...

أخذت النسختين الآخريين، وعدت بخفي حنين، سألني صاحب المحل عن اسم فندقي... وسميته له.

ـ إلى اللقاء.

ـ إلى اللقاء...زرنا.

ـ أوه... أوه... أوه... مايسترو... كيف حالكم؟ سلم علي الرسام في بهو الفندق.

ـ كل شيء على ما يرام.

ـ ثمة مقالة عنكم في الجريدة. هل قرأتموها؟.

ـ لا.

ناولني الرسام أربع صفحات من الحجم الصغير. أخذتها وذهبت إلى غرفتي. في الصفحة الأولى قرأت خبراً عن نفيي إلى بورصا. لكن لو أن الأمور توقفت عند هذا الحد. فكاتب المقالة وجه إلي سيلاً من الشتائم، ولم يترك من قبائح الدنيا إلا و نعتني بها، لدرجة أنه لم يبق للسفلة الآخرين من حصة.

وفي مقطع ما من المقالة، لم أستطع إلا أن أقهقه ملء حنجرتي، فقد فضحني كاتب المقالة، كحائز على مبالغ خيالية من صناديق سرية أجنبية. وعلى الصفحة الثانية كتب مقال عن «الاكتشافات الجديدة لعلاج السرطان». والصفحة الثالثة خصصت للإعلانات الرسمية. أما الأخيرة فكانت للإعلانات التجارية.

وما إن مسحت دموع الضحك عن عيني، حتى دق الباب، ودخل شاب ذو هيئة حسنة. سلم علي مصافحاً وهو يقول: أهلاً وسهلاً بك في بورصا.

لقد عرف الشاب عنواني من محل بيع الكتب، وتبين أنه واحد من المتحمسين، والهاشمين بي، وإنه صاحب الجريدة الأسبوعية في بورصا، والتي كانت لا تزال في يدي.

انعقد لساني للحظة، ثم أشرت إلى الجريدة: صاحب هذه!؟ أحمر وجهه كسرطان النهر وقال: إغفر لي... أنت متفهم.. طبعاً.... إنه الوضع السياسي... حساس جداً...

ارتبك الشاب لدرجة أنني اضطررت لرفع معنوياته: لا عليك.. كل شيء جائز... فإذا فقد الناس حساسيتهم، فإن الأوضاع يجب أن تكون حساسة.

ـ لا تؤاخذني....

قال الشاب معتذراً، ثم وضع ورقة نقدية مجعلكة على السرير.

قلت: لا يمكن أن آخذها ولا بأية حال.

لكنه استدار بسرعة وخرج.

لو كنت بصدد كتابة رواية، وليس حقائق أصلية، لجعلت بطلي يمزق الورقة النقدية إلى نتف بكل تأكيد. لكنني للأسف لم أفعل ذلك، فقد قفزت على السرير لأعرف من أية فئة كانت، ووجدتها من فئة العشر ليرات. وأول ما قمت به هو أنني أشعلت المدفأة.

«تعقيب»

بعد عودتي من المنفى بعدة سنوات، أصبح هذا الصحفي أحد أصدقائي المقربين... كان إنساناً موهوباً ومفكراً وطيب القلب. لكنه للأسف كان يشرب الخمرة كثيراً. يبدو أنه كان يجد فيها عزاء له. وفي نهاية الأمر فقد نفسه في قاع زجاجته. فهو لم يستطع تحقيق ما أراده. وكان مضطراً أن يفعل ما لا يريده. كانت تلك مأساته. وليس من العدل، أن تطالب الجميع، بأن يكونوا من ذوي الإرادة الصلبة.

8 لم يعرف أحدنا الآخر

في تلك الأيام، كانت تصدر في بورصا عدة جرائد. وأنا شخصياً لم أحلم بوظيفة الناشر الأدبي. فقد تمنيت لو أنهم يقبلوني كرسام كاريكاتور فقط.

اشتريت كل الجرائد المحلية، ورحت أدرسها بعناية. فالجريدة الأسبوعية الساخرة، كانت مخصصة للإعلانات الرسمية، ومديح محافظ بورصا، والهجوم على الحزب الديمقراطي المعارض آنذاك، أما الجرائد الأخرى، فكانت جميعها تؤيد الحكومة، لأنها كما كان يقال، كانت تستمد علفها منها.

ثمة جريدة واحدة معارضة، كانت تصدر في المدينة، هي جريدة الحزب الديمقراطي. وناشرها كان شاعراً. وكنت أعرف اسمه. «إنه ــ شاعر، فنان. وسيقدر وضعي. ووظيفة رسام كاريكاتور، سيجدها بكل تأكيد، وقد يُعهد لي بالإشراف على قسم الاشتراكات، أو قد يعينني ممثلاً له. فجريدته معارضة، وهو سيقدم لي هذه الخدمة الصغيرة، فهو أديب. وأنا أديب... والطيور على أشكالها تقع».

هكذا كنت أفكر. لكن لماذا؟ لست أعرف... لا... إنني أعرف. فهو شاعر، والحديث مع الشاعر، مسألة عظيمة بحد ذاتها. إنه أخي في المهنة...

مضى شهر من المنفى. وبقيت ثلاثة أشهر وعشرة أيام. لن أساوم على الأجر. وسأقبل بما يعرضه علي. فقد حننت إلى العمل، لدرجة أنني مستعد لقبوله أيا كان نوعه. فما بالك بعمل تحت أمرة شاعر!.

سأحدثه عن كل شيء بلا خجل. سأقول له، إنني أعيش بلا نقود. وأنني أتضور جوعاً يجب ألا أخجل منه.

ذهبت ثلاث مرات حسب العنوان المسجل في الجريدة. لكنني لم أجد صاحبها الشاعر. وفي المرة الثالثة، أخبرني أحد العاملين هناك، أن الشاعر سيأتي في المساء.

بقيت في جيبي ليرة واحدة. اشتريت علبة سجائر وانطلقت إلى مصيري.

ـ نعم... أنا هو... ماذا تريد؟ قال الشاعر عندما سألته عن صاحب الجريدة. قدمت نفسي. قاسني بنظرة طويلة. انتصب. فكر. ثم جذبني بسرعة إلى غرفته وأغلق الباب.

ـ رائع إنك أتيت إلى هنا في هذا الوقت المتأخر من المساء... في وقت لا يوجد فيه أحد ـ كانت هذه أول كلماته ـ وصول موفق... ألم يرك أحد؟.

أما أنا فتجمدت في مكاني غير قادر على الحركة.

مشى إلى عمق الغرفة وأشار إلى الكرسي وبدأ:

ـ إنني اقرأ كل قصصك، ولا أفوت واحدة منها... وأنا معجب برجولتك...برافو...

ـ أنا هنا في المنفى... وبحاجة إلى أي عمل.

ـ أعرف... فقد سمعت إنك تقضي أيام المنفى هنا... لي رجاء واحد... هو أن لا يدري أحد بلقائنا... وإلا فسيكون مصيرنا سيئاً.

مددت يدي مرتبكاً إلى جيبي، وأخرجت علبة السجائر، التي فتحت لتوها وضيفته. تناول واحدة. وهو لم يفطن أن يضيفني من سجائره. وأنا أخذت واحدة أيضاً. بدأت أبحث في جيوبي عن الكبريت. أما هو، فلم يعر ذلك أي انتباه، حتى أنه لم يقترح علي ولاعته. شرع يوضح لي، بأن فرصة نجاحه في الانتخابات البرلمانية، واردة بنسبة تسعة وتسعين بالمئة.

ـ أن الاحتمال قوي جداً بالفوز بالانتخابات... وإن انتخِبتُ ـــ فإنني سأقدم المنفعة لمواطني... ومن منبر البرلمان سيكون أسهل...

ـ أسهل.

ـ أليست رغبتي منطقية؟.

ـ لو علمت الألسن الشريرة بحديثي معك هنـا، فإنهـا ستتشحذ نفسها للقيل والقال. أليس كذلك.

ـ كذلك.

ـ ولهذا...

ـ أرجوك جداً، ألا تأتي إلى هنا بعد الآن. هل تفهمني؟.

ـ أفهمك.

ـ فيما لو انتخبت.

ـ ستنتخب.

ـ لي رجاء آخر... بورصا مدينة صغيرة... وإذا صادف والتقينـا، فسنتظاهر بأننا لا نعرف بعضنا بعضاً... حتى أننا لن نسلم على بعضنا...

ـ لن نسلم.

ـ المعروف عن الشرطة في أيامنا، أنها قادرة على اعتقال أي شخص متى شاءت. لذلك، نحن لم نلتق... ولم نر بعضنا... ولا يعرف أحدنا الآخر...

ـ لا يعرف...

ـ ولم نتحدث...

ـ لم نتحدث.

نهضت والسيجارة لم تشتعل بعد في يدي وقلت: شكراً.

ـ لا شكر على واجب.

ـ اعذرني... فقد أزعجتك.

ـ أرجو أن تتذكر ما طلبته منك... مع السلامة.

ـ السلام عليكم.

من المعروف، أن الشرطة تعتقل وتزج في السجون، أولئك الذين ينتحلون شخصية المهندس والطبيب والمحامي... أما من ينتحل شخصية

الشاعر، فإنه يتمختر أمامنا بكل حرية. يعلّم الشرف والعدل، ويكتب الشعر عنهما.

«تعقيب»

علمت بعد عدة سنوات من ذلك، أن الشاعر لم ينتخب في البرلمان، فقد اتهم بتعاطفه مع اليساريين. وتبين أنه كان مشهوراً بيساريته وقد طرد من المدرسة، لأنه نسخ أشعار ناظم حكمت في دفتره. كم محزن، أنه لم يصبح عضوا في البرلمان، لكي يجلب المنفعة لمواطنيه! استمر الشاعر في صداقاته مع كل قادة الحزب الديمقراطي. لكنه كشاعر بقي مغمورا، التقيت به بعد سنوات طويلة. وما زلت التقي به حتى الآن. لكننا لا نتذكر تلك الأيام المريرة. وكم بودي لو أنساها نهائياً. لكن ما العمل إذا كانت الذاكرة لا تؤمر. زد على ذلك أن سطوري هذه قد نشرت في الطبعة الأولى للكتاب، وليس باستطاعتي أن أحذفها منه.

9

سباق الأكولين

استلمت رسالة من أخي. لكن أية رسالة! ، يقول: «تعال إلينا بسرعة، لتمحو العار عن أسرتنا. ليس باستطاعتنا أن نعيش هكذا...».

وأخي لا يعرف ماذا يعني السجن والمنفى، فهـو يكتـب: «خـذ إجـازة ولو ليومين، لترى بأم عينيك ما يجري في بيتنا!».

أذكر ذات مرة، أن أخي حصل على موافقة لزيارتي في السجن. وقـال يومها كلاماً مشابهاً. وهو يتصور السـجن والمنفـى عبـارة عـن بانسـيون، أو مدرسة داخلية بأسوأ الأحوال.

قرأت الرسالة ثلاث مرات، وفي كل مرة، كنت ازداد غضباً واشتعالاً.

ـ ليذهب إلى الشيطان، هل هو صغير حقاً؟ وما الذي باستطاعتي فعلـه؟ لقد وصلت الأمور إلى طريق مسـدودة، وأنـا لا أدري كيـف يمكنـني العيـش لاحقاً، إن ثلاثة، أو أربعة أشهر في المنفى، قد تبـدو تافهـة للوهلـة الأولى. لاشك، أنه من الممكن العيش بشكل رائع في بورصـا، فيمـا لـو توفـر المـال. وأنا لا أتحدث عن مبالغ كبيرة، بل عن تلك التي تكفيـني لتنـاول الطعـام مرتين في اليوم. فأنا جـائع طـوال الوقـت. وعندمـا تـرن القطـع النقديـة في جيبك، فليس مخجلاً أن تعلن: «أنا جائع»، لكن إذا كانت غـير متوفـرة، فإن الكلمات تتوقف في حلقك، وتصبح هزيلاً ضعيفاً. كـل مـا أملكـه، هـي قطع نقدية حقيرة ونصف علبة سجائر.

ومـن مطعـم «إسـكندر» كـانت رائحـة اللحـم المشـوي تفـوح بشـكل لا يحتمـل. اشـتريت كعكـة وانطلقـت إلى المقهـى الواقـع خلـف الزاويـة. وفي

المقهى رحت افتت قطعاً صغيرة من الكعكة في جيبي، واضعاً إياها في فمي، شارباً الشاي معاً. واحتدمت بي شهية وحشية بعد هذه المقبلات. وحول الطاولة المجاورة، اجتمع عدد من الأشخاص، كانوا يتراهنون فيما بينهم، عما باستطاعة الواحد منهم، أن يلتهمه دفعة واحدة.

قال أحدهم متباهياً: أراهن على خمسين ليرة، بأنني قادر على أكل خمس فطائر من الجبن، وعشرين بيضة مسلوقة، وكيلو غرام من الحلاوة الطحينية.

ـ ستدفع مئة ليرة إن خسرت!.

ـ موافق.

ـ وستدفع ثمن طعامنا أيضاً.

ـ ما عندي مانع.

عين الجائع حسودة. فقد خيل إلي، أن خمس فطائر وعشرين بيضة وكيلو حلاوة، ليست إلا شيئاً سخيفاً بالنسبة لضرس واحد من أضراسي.

ماذا لو صرخت: «أي... أنتم... كم ستدفعون لي أن أكلت أكثر من ذلك بمرتين؟!».

سأخسر.. لكن سيان بالنسبة لي.. فأنتم لن تأخذوا مني مئة ليرة... اضربوني أن شئتم.

تدخلت في نقاشهم. نظروا إلي باهتمام... وتابعت: لو أنني لم أتناول فطوري هذا الصباح، لكان باستطاعتي أن آكل أكثر من ذلك. قصعتين من الحساء مثلاً، ثلاثة رؤوس غنم... لكن الفطور صد شهيتي.

جحظت عيونهم ولمع الخوف فيها. إن مراهنة مثل هذا «القبضاي» تعد شيئاً خطيراً. وأنا نفسي ارتعبت من ذلك. لأنني بالغت جداً. ولكي استعجلهم قلت: وإن خسرت فسأدفع لكم خمسمئة ليرة، وإن خسرتم، فلن آخذ منكم قرشاً... لكن لدي شرط واحد...

ـ ما هو؟!.

ـ أن تجلبوا لي أربعين كأساً من عصير الليمون... لأنني سأشرب أثناء الأكل.

صرخ أحدهم: يا إلهي!... كيف سيتسع بطن هذا الصغير لكل هذه، لاشك سينفجرّ!... لا بأس... سأجلب أربعين كأساً من العصير.

جلبوا خمس فطائر كبيرة من الجبن. وهجمت عليها. أكلت واحدة... اثنتين...

ـ إنها دسمة جداً ـ قلت وأنا ألتهم الفطيرة الثالثة.

ـ ووزن هذه أكثر من كيلو غرام على ما يبدو...

شربت كأسا من عصير الليمون وتناولت الفطيرة الرابعة.

ـ سمن هذه الفطائر سيء جداً... وستمرض معدتي....

عموماً، أنا من هواة الأكل. وكان باستطاعتي سابقاً أن ألتهم الكثير من هذه الفطائر. لكن على ما يبدو، إن معدتي تقلصت بعد الفطائر، فكانت تنمو وتنمو وتنمو، لتصبح جبلاً شاهقاً أمام عيني. وكانت كل لقمة منها، تتوقف في حلقي كالبلاطة.

ـ يبدو يا أخوتي أن هذه الفطائر، مقلية بسمن رديء.

أما «أخواتي» فكانوا يقهقهون لي أن انسحب؟.

ـ ادفع خمسمئة ليرة.

أتظاهر بالبحث في جيوبي.

ـ أعوذ بالله ــ لقد نسيت محفظة نقودي... أم أن أحدهم سرقها مني؟.

طبيعي بعد ذلك. أقسم لكم، أن ذلك ليس سوى من محض اختلاقي... إذ عندما كان الشباب يتراهنون حول الطاولة المجاورة، عما باستطاعة كل واحد منهم أن يأكله، أصبت بغيبوبة تامة وغرقت في سبات عميق.

أذكر أنني كنت ابتلع لعابي، عندما كان الشخص المراهن يلتهم الفطائر والبيض والحلاوة، لدرجة أنني بدأت أغص. وعندما استيقظت، خرجت مسرعاً من المقهى. ولا أدري إن كان ذلك الأكول، قد ربح الرهان أم لا.

10

دروس في القرآن الكريم

تمكنت من العيش على الخبز والماء، بفضل عملي في الرسم على أغطيـة الموبيليا. فقد كان شائعاً في تلك الأيام، وضع أغطيـة مزخرفـة مـن القمـاش اللماع على الكرسي، والدواوين في صالونـات البيـوت القديمـة. وعلـى هـذا القماش، رسمت بالألوان الزيتية، قططاً، وعصافير مختلفة، ووروداً جوريـا، وزهر البنفسج وغيرها... وكانت المناظر الطبيعيـة الرومانسية، مثـل منظـر يطل على بحيرة تعكس ضوء القمر السماوي، كـانت تثمـن بشـكل خـاص. والمسألة تمت كالتالي: عثرت على حانوتي في السوق «المقبي». اتفقت وأيـاه علـى أن يـروج بضـاعتي، بشـرط أن يقدم لي القمـاش. وفي البدايـة كنـت أحصل على ليرة واحدة لقاء كل لوحة. بعـد ذلـك هبـط السـعر إلى سبعين قرشاً، ثم إلى خمسة عشر قرشاً.

- رويدك يا أخ... إنك ترسم بسرعة. هذه أغطية وليست خبزاً يشتريها الناس كل يوم... إذ يمكن بيع قطعـة... اثنتـين في الأسـبوع لا أكـثر... ـ هكذا شرح لي الحانوتي. وصار يدفع لي أجري بعد أن تباع السلعة فقط.

لو أمكنني الحصول على عدة نجـارة، لكنـت قلـدت أشـياء كثـيرة مـن الخشب المعاكس، مثل الرفوف والدعائم، وعلـب صغـيرة للهدايـا، وألـواح للرزنامات. لكن حتى بيع هذه الأشياء لم يكن بـالأمر السـهل، ذات مـرة، وفيما كنت جالسـا في مقهـى كبـير، دخـل شـخص غريـب المنظـر. صـرخ بصوت جهوري: أرجـو الانتبـاه، يـا سادتي المحـترمين. ثـم راح يعرض

شعوذاته المضحكة. مثلاً، يتناول قطعة نقدية في يده، وتختفي أمام أعيننا جميعاً، ثم يلتقطها من الجو بعدَ ذلك، وكأنها ذبابة. أو يبتلع بكرة من الخيطان ثم يخرج الخيط من أنفه. أو يشعل ناراً في فمه. لقد عرض هذا الرجل، العديد من الفقرات البارعة، وفي النهاية، خلع قبعته عن رأسه، وراح يدور بين الطاولات، طالباً المال.

نعم. من الضروري جداً بالنسبة للإنسان، أن يقدر على فعل أشياء خارقة، لا يقدر على فعلها الآخرون. وأنا لم أقدر على فعل هذه الأشياء. ولو تمكنت من فن السحر، لكانت أموري ماشية تماماً. لكنت مثلاً، عرضت مواهبي، وجمعت قبعة مليئة بالمال، وهل هذا أمر سيء؟.

وهذا يعني، أنه على أي كاتب أن يعلم مسبقاً، بأن المصائب قد تقع فوق رأسه في أية لحظة. ولهذا السبب، يجب عليه أن يتعلم الحيل المختلفة.

ذهبت إلى صاحب محل بيع الكتب وسألته: هل باستطاعتي أن أعلق على واجهة محلك هذا الإعلان: «أعطي دروساً في اللغة الإنكليزية»؟.

أجابني: لن تستفيد شيئاً، لأن الجميع الآن، يعطون دروساً في اللغة الإنكليزية. انظر إلى واجهات المحلات، كم من الإعلانات «أعطي دروساً في اللغة الإنكليزية» معلقة عليها. حتى أن الأشجار وجدران البيوت زخرفت بهذه الإعلانات. وإذا ظلت الحالة على هذا المنوال، فإن عدد المدرسين في اللغة الإنكليزية، سيصبح أكثر من عدد الطلاب. إننا بحاجة إلى مدرسين في اللغة التركية. والأفضل لك أن تعطي دروساً في لغتنا... خاصة القديمة...

ضحكت.

أما هو فقال: أنا لا أمزح. سنعلق هنا اللوحة: «أعطي دروساً في اللغة التركية القديمة» وسترى كم من التلاميذ سيأتون إليك.

وهكذا فعلنا. وبعد أربعة أيام، أصبح عدد تلاميذي أربعة. وهم أطفال تراوحت أعمارهم من تسع إلى ثلاث عشرة سنة. لقد ظننت، أن شباباً، يرغبون في قراءة الكتب القديمة، سيأتون لدراسة اللغة التركية القديمة. لكن تلاميذي، كانوا من الأطفال.

في البداية سألني أحد الأباء جاهراً: هل تعطي دروساً في القرآن؟.

لم أكن أظن، أنهم سيفهمونني على هذا النحو.

أجبت: نعم.

وقبل أن يرسل ابنه، أخضعني الأب للامتحان.

وأنا لا أعتقد، بأن معلوماتي في القرآن «وكنت من حفظته ذات يوم». ستقدم لي هذه الخدمة. وازداد عدد التلاميذ الراغبين في تعلم القرآن يوماً بعد آخر.

أما الدروس، فكنت أعطيها صباحاً في مسجد «الوضجاما». وعندما أصبح عدد التلاميذ ثمانية، امتلكني خوف من أن تقع كارثة جديدة على رأسي. لأن إعطاء الدروس في القرآن بعد عدة سنوات من موت أتاتورك، لم يكن بالأمر السهل كما هو الآن.

كان الأباء مسرورين. لأن أولادهم يتعلمون القرآن جيداً، وبسرعة هكذا كانوا يتحدثون فيما بينهم.

قال لي أحد الأباء ذات مرة: عين الحاسد تبلى بالعمى... ما شاء الله... كم أنت سريع في تعليم القرآن. فبعد عدة دروس معك، أصبح ابني يعرف أكثر مما عرفه مع أستاذ آخر لمدة سنة.

وسارت أموري بشكل رائع. وفكرت، أليس من الأفضل لي أن أبقى في بورصا بعد المنفى لتعليم القرآن.... إنه عمل ممتاز...

وذات صباح مشرق، كنت انتظر تلاميذي كالعادة في المسجد. لكن أحداً منهم لم يأت. وفي الصباح التالي تكرر الشيء نفسه. سألت مؤذن المسجد عما يجري. فأجابني متمتماً: يجوز أنهم مرضوا.

ـ عجيب! ... لا يوجد أي وباء في المدينة... ولم يأت أحد منهم!...

ولم أرى تلاميذي بعد ذلك.

علمت فيما بعد، أن أحدهم فضح السر لأحد الآباء، وأخبره من يكون «المقرئ عزيز». فقد حدثني عن ذلك في المقهى شخص كانت تربطني به علاقة وثيقة. وهو لم يشك أبداً، بأن المقرئ عزيز، هو أنا فقد صرخ.

يا الله!... إنهم يرسلون المنفيين من استامبول إلى بورصا، ليتظاهروا هنا، بأنهم من حفظة القرآن الكريم. كم يتفنن هؤلاء النصابون... لقد رغبت بإرسال ابني لتعلم القرآن لديه. لأن الجميع كانوا يمدحونه على سرعته وحسن تعليمه للقرآن... إننا بأيدينا نسلم أطفالنا للمرتدين. ومن كان يظن، أنه سيأتي مثل هذا الشخص إلى هنا، ليتظاهر بأنه من حفظة القرآن، ويذهب إلى المسجد؟.

11

إما أن تأتي إلى هنا، أو

من أصعب وأثقل أوقات اليوم، بالنسبة للوحدانيين، المرميين في الغربة، هي الليالي. فما إن يحل الظلام في السجن أو المستشفى أو المنفى، حتى تستولي على روحك كآبة قاتلة، وشعور حاد بالوحدة. وعند ذلك أهرب من البيت، هائماً على وجهي، أتجول في أماكن لا أعرفها لأضيّع الوقت.

وفي ضاحية المدينة، فوق هضبة «تيمينة» عثرت على مقهى تحت خيمة نصبت على عجل. والشاي في هذا المقهى لذيذ جداً، كما يمكن رؤية بورصا كلها من خلاله. وأنا شخصياً أحب الشاي جداً. إذ أشرب عدة كؤوس دفعة واحدة، فيما لو توفرت النقود طبعاً. كما أنني أجلس في الحديقة في أي طقس، اللهم إلا إذا لم تكن تمطر السماء. وإن أمطرت، فإنني أذهب إلى المقاهي، لأستمع إلى أحاديث الناس. والأمر بالنسبة لي هنا جيد. إذ لا أحد يعيرني انتباهه، ولا يحدق بي بفضول.

ذات مساء، كنت جالساً في الحديقة أفكر بالبيت، بالأطفال سرحت بأفكاري بعيداً.

بيتي... وكان قلبي وكأنه ينضغط بين طرفي ملزمة... وكنت كئيباً حزيناً. إن حياتي التي بنيتها بصعوبة بالغة، وحجرة حجرة... حياتي التي عَقَدتُ عليها كل آمالي وسعادتي... ها هي تتفسخ هاوية، وأنا لا أملك القوة ببقائها أو إنقاذها. وشعرت بنفسي صغيراً. ضعيفاً كالطفل تماماً. وفي هذه اللحظة، وصل إلى سمعي غناء لصوت نسائي جميل، منطلق من المذياع:

«إما أن تأتي إلى هنا، أو خذني معك إلى بلد بعيد». وفجأة، اكتسبت كلمات هذه الأغنية المجهولة معنى وفكرة بالنسبة لي. ولو أنني سمعتها في ظرف آخر. لما أعرتها أي انتباه، تماماً كما بالنسبة للحلم المزعج أو النبوءة السخيفة. لكن ذلك، بدا لي في تلك اللحظة، وكأنه آتٍ من هناك... من استامبول البعيدة... حيث تتوجه إليّ حبيبتي وهي تشهق وتئن:

«أما أن تأتي إلى هنا، أو خذني معك إلى بلد بعيد» وماذا لو هربت إلى استامبول ليوم أو يومين؟ فالمسافة إلى هناك ليست طويلة جداً.

«إما أن تأتي إلى هنا، أو خذني معك إلى بلد بعيد». لقد مست الأغنية روحي المحطمة. هل أهرب؟ الألم تجاوز كل الحدود. هل أهرب بعد تسعة أشهر في السجن، وشهرين في المنفى؟ لا بأس... لكن أية كارثة جديدة ستقع فوق رأسي؟.

وحل الليل... وعدت إلى الفندق، وكانت كلمات الأغنية لا تزال تطن في إذني: «إما أن تأتي إلى هنا، أو خذني معك إلى بلد بعيد».

أشعلت «بابور السبيرتو، ووضعت إبريق الشاي عليه. وفيما كنت أحدق باللهب الأزرق المتراقص، وجدت نفسي أكتب مسرعاً: «تعالي فوراً إلى بورصا. سنقضي شهري المنفى المتبقيين مع بعض هنا».

وصلني ردها متأخراً: «كيف سآتي إليك مع طفلين صغيرين إلى مكان غريب، وفي هذا الشتاء البارد؟».

إنه لرأي سديد حقاً.

خدعت نفسي، محاولاً التخفيف عن حلمي الذي لم يتحقق... «إنها محقة. والنساء يفكرن بعقل سليم دائماً»... هكذا رحت أهدئ نفسي بلا جدوى، وفي النهار ذهبت إلى المكتبة وانغمست في الكتب، لكي أهرب من الأفكار الكئيبة، لكن أحداث الأيام الغابرة في هذه الكتب لم تقلقني اليوم. لأن قلق اللحظة الراهنة لم يفارقني. وخيل إلي، أنني أفقد عقلي.

وفي المساء، عدت من جديد إلى المقهى في «تيمينه».

وخلف الطاولة المجاورة، كان ثمة رجل يطالع جريدة، نشر فيها خبر عن اعتقال يساري آخر، فقد رسم هذا «المجرم» منجلاً ومطرقة على جدار

مرحاض عمومي. وفي تلك الأيـام، كـانت الشـرطة تلاحـق بشـكل خـاص، وعنيف أولئك الذين يرسمون هذا الرمز على جـدران المراحيـض العموميـة، والذي كان يعتبر كدعايـة للشـيوعية. وفي المؤسسـات العامـة، كـان صنـف معين من الموظفين، مهمته تعقب العمال وكتابة التقارير للشـرطة بـأن فـلان الفلاني «وهو عادة مـن المغضـوب عليهـم مـن قبـل مدرائهـم» رسـم منجـلاً ومطرقة على جدار أحد المراحيض العمومية.

وجرائد تلك الأيام، لم تكن تخجل من كتابة مثل هذه الأشياء، ووسـعت الشرطة دائـرة ذوي «الخطـوط الجميلـة» والصحـافيين. وضمـن المعتقلـين في السجون، كان بالإمكان دائماً، العثور على عدد من المعتقلين بالوشاية. وهم غالباً أناس أميون، ولأول مرة في حياتهم يسمعون بكلمة «شيوعية».

وكانوا يطلقون سـراحهم بعـد تعذيـب طويـل، ويعـود هـؤلاء بعـد عـام ونصف إلى بيوتهم، ليجدوهـا قـد تهدمـت، ومواقدهـا انطفـأت. وعلـى مـا يبـدو، أن الحكومـة اتخـذت هـذه الصيغـة، لكـي تكـون انطباعـاً، بـأن الشيوعيين في تركيا، يقومون بنشـاط هـدام كثيـف، ولهـذا يجـب النضـال ضدهم بلا رحمة. وكل ذلك من أجل الحصول على مساعدات مـن أمريكـا. والبلدان المتخلفة المحتاجة إلى مساعدات خارجية، كـانت غالبـاً مـا تقـوم بمثـل هـذه المنـاورات. كـم يؤسـفني أنـني فقـدت قصاصـة مـن جريـدة «الجمهورية». فقد سأل الصحفيون رئيـس وزراء الهنـد آنـذاك، والقـادم إلى أمريكا: «هل ثمة خطر شيوعي في الهند؟» أجاب رئيـس الـوزراء الهنـدي: «من الصعب جداً أن نجيـب علـى هـذا السؤال. فـإذا قلـت أنـه لا وجـود للخطر الشيوعي في الهند، فإننا لن نتلقى المسـاعدات مـن أمريكـا. أمـا إذا قلت أن الخطر موجود، فإنني سأقول غير الحقيقة».

هكذا... هكذا إذن.

في ذلك المساء كان رواد المقهى يناقشون أخبـار الجرائـد بحمـاس. وقـد سرد أحد الشباب قصة كاذبة. قال: في روسـيا مثـلاً، إذا دخـل الـزوج إلى بيته، ورأى قبعة رجل غريب، معلقة على العلاقة... فإنه ينسحب بهـدوء لكي لا يعكر صفو اللقاء الغرامي.

لم يحتمل أحد الحاضرين ذلك وصرخ: اسمع يا هذا... هل ناضل الروس ضد القهر، وتعفنوا في السجون، لكي تنام زوجاتهم مع رجال غرباء؟ هل كانت ثورتهم من أجل ذلك؟

ـ ماذا تقصد؟

وبدأ النقاش. نهضت فوراً وخرجت. ولم أعد بعد ذلك إلى هذا المقهى المبارك. مع ذلك قررت الهرب إلى استامبول. ولم أستطع النوم الليل كله. وفي الصباح قلت لنفسي: يجب أن أرحل!.

12
سر على خطى أبيك

إن ما يميز الإنسان، بغض النظر عن حالته وبيئته هو دأبه في التواصل مع الآخرين. وليس من قبيل الصدفة، أن يقال أن الإنسان «حيوان اجتماعي». ولو كنا حيوانات فقط، لما أدركنا ذلك، ولكنا اجتمعنا كالقطعان فقط. وجوهرنا «الاجتماعي» يدفعنا إلى إقامة علاقات وثيقة مع من حولنا.

و«د» واحد من الذين، كنت اعتبرهم أصدقائي، فقد عشنا وقضينا المنفي معاً في بورصا حتى أننا عشنا في غرفة واحدة. وكنا نعرف بعضنا سابقاً.

كان «د» يدعونا لتناول الغداء في المطاعم، ويسقينا الشاي والقهوة في المقاهي. وهو شخصياً ليس من بورصا ... بل من مكان ما... لنقل من الأناضول.

ثمة إنسان واحد بقي في ذاكرة «د» منذ الطفولة. ألا وهو المنفي في مدينتهم «الاشتراكي: حلمي». وكان والد «د» غالباً ما يدعو حلمي لزيارتهم. ولهذا السبب لا يزال «د» يتذكره جيداً. وقد توجب على حلمي، أن يقضي المنفى، في عدة أماكن من الأناضول. وفي تلك الأيام، كنت اقرأ كثيراً في مكتبات بورصا الغنية. وكان ما يثير اهتمامي بوجه خاص، هو مصير المنفيين في مراحل تاريخنا المختلفة ومن خلال المجلات والكتب القديمة، تعرفت على أشياء مثيرة جداً. مثلاً، أن بورصا، كانت مكاناً شهيراً للمنفيين. وإن السلطان عبد الحميد ـ إذا أردنا القول بلغة عصرية ـ لم يكن يطبق عقوبة النفي ببساطة كما الآن. فقد كان يُذهل

بإحسانه وكرمه أولئك، الذين لم يخضعوا له. إذ كان يمنحهم الأوسمة والمال. وإذا كان هذا الأسلوب، لم يجد نفعاً في إخضاع المناوئين له، فكان يرسلهم إلى المحافظات الأخرى، ويعينهم في مناصب عالية، مثل: مدير منطقة، أو محافظ، أو مدير ناحية، أو أمين عام لمؤسسة ما.

وإذا لم يعط هذا الأسلوب، النتائج المرجوة، عند ذلك فقط، كان يرسلهم إلى المنفى. وقد استمرت هذه السياسة حتى مجيء الاتحاديين. والجدير بالذكر، أن حكومة السلطان، كانت تخصص رواتب للمنفيين. وقد حسبت، فيما إذا كانت هذه الرواتب تكفي للعيش، فتبين لي، أنه كان بالإمكان شراء كيلوين من اللحم، وكيلوغرام من الرز، وكيلو سكر وكيلوين من الخبز، بالإضافة إلى ثمن السجائر، لاشك أن القوة الشرائية لليرة آنذاك، كانت أقوى من الآن. إذ كان باستطاعة المنفي أن يعيش عيشة رغيدة، حتى أنه استطاع أن يوفر لليوم الأسود. مباركة تلك الأيام!.

وفيما يتعلق بالوجهاء المحليين، فإنهم لم يتجنبوا المنفيين. فكانوا يستقبلونهم في بيوتهم، ويظهرون لهم كل الاحترام. كما أنهم لم يحشروا أنوفهم في أسرار الآخرين. وكان من الحشمة واللياقة بالنسبة لذوي الشأن الرفيع، أن يدافعوا عنهم أيضاً. أما إذا كان المنفي إنساناً مثقفاً، فكانوا يحملونه على الأكف مباشرة.

لكن المنفى عار في أيامنا. لا عمل، والجميع يهربون منك وكأنك الوباء نفسه. ولا أحد يجرؤ على التحدث معك. وأنا لا أظن، أن الناس المخلصين آنذاك، كانوا يوافقون السلطة على وجهة نظرها، وهم لهذا السبب تعاطفوا مع المنفيين. أبداً لا... وقد تأكدت من ذلك أكثر من مرة. فأنت ما إن تتحدث مع شخص ما صدفة، حتى يتبين لك أنه أكثر منك تطرفاً ومعارضة.

وعند إعلان حالة الطوارئ في استامبول، تم إرسال كل المجرمين، وأصحاب السوابق، واللصوص، والمهربين، والنصابين إلى الأقاليم دونما محاكمة أو تحقيق، لكن كيف تمكن هؤلاء الأوباش من العيش لمدة ستة أعوام؟ لقد أوقعوا سكان المدن والأقاليم النائية في حالة من الفزع والرعب.

إذ أصبح الحشاشون، ولاعبو القمار، واللصوص، ظاهرة عادية، لدرجة، أن اللصوص والنشالين، ارتكبوا سرقات أمام أعين الدرك ورجال الشرطة، فقد تم سرقة المسافرين في أحد القطارات ذات مرة، وكان اللصوص برفقة حراس... وهم لهذا السبب لم يثيروا شكوك أحد في البداية...

ما علينا... لنعد إلى «د». فقد التقيت به في مقهى بورصا، وكان يشرب القهوة مع رفيق له، مد يده إلى صديقي مشيرا نحوي وسأل:

ـ من هذا الغلام؟.

«من هذا الطفل» هكذا أراد أن يقول، لكنه سماني غلاماً، رغبة منه في إرضائي.

أجابه صديقي وهو يغمزني بعينه: إنه ابن عزيز نيسين... اتسعت عينا «د» وقال: آ...ابن عزيز نيسين!... صبي مشهور أنت... إن والدك عزيز... ـ التفت إلي «د» وراح يبالغ في ذكر عزيز نيسين ـ إنسان لا مثيل له في الجرأة أبداً... ولا أظن أنه سيولد في المستقبل القريب واحد كأبيك... أي قصص يكتب!... وشرع يتحدث عن قصصي القديمة، التي كنت قد نسيتها. إن ما أثار فضولي، هو كيف ستنتهي هذه المسرحية، وشعرت بالدفء يغمر روحي. أما صديقي، فكان ينظر إلي وهو يضحك صامتاً.

تابع «د»: كن مثل أبيك بإذن الله... سر على خطاه... إن بلدنا بحاجة لمثل هؤلاء المواطنين...

كان «د» يتكلم بصوت عال، لدرجة أننا كنا على يقين، من أننا لن نراه بعد ذلك. إذ لسنا في بورصا؟.

قاطعه صديقي: اسمع... هذا ليس ابن عزيز نيسين، بل عزيز نفسه....

ـ لا تستغبيني!.

ـ أقسم لك.

ـ با لله عليك.. دعك من المزاح.

ـ إنه عزيز ذاته.

قاسني «د» بنظرة غير واثقة.

فملابسي لا أبهى ولا أجمل، وأنا كالقزم، وهيئتي، تبارك الله.

تابع «د» أقسم بالله، أنني لا أصدق... يبدو أنكما تمزحان معي.

وبصعوبة بالغة، استطعنا إقناع «د» بذلك. لكنه ظل يعاملني طيلة أيام المنفى، كما يعامل الطفل الصغير في الأسرة.

وظل يسأل دائماً: هل حقاً، هذا عزيز نيسين؟.

أما أنا، فخشيت أن يفقد «د» عطفه علي. لأن حقارة منظري كانت دائماً تكلفني غالياً. فمنذ عدة سنوات، أتت إلى هيئة تحرير الجريدة، التي كنت أصدرها، فتاة شقراء جميلة وقالت: أرغب في رؤية عزيز نيسين.

ـ أنا هو...

ذهلت الفتاة قائلة: هذا أنت!؟ لقد تصورتك طويلاً... كتفاك عريضان... عمرك ٤٠ سنة... وقد دب الشيب في سالفيك...

خرجت الفتاة خائبة، كما لو أنها اغتصبت.

13

الهروب من المنفى

بعد تفكير وتردد طويلين، قررت، أنه من الضروري لي أن أهرب من بورصا. والصعوبات كثيرة كانت. أولاً، لم تتوفر اجرة الطريق. ثانياً، عليّ كل صباحٍ ومساء أن أثبت وجودي، موقعاً في دفتر قسم الشرطة. وقد تبين لي عموماً، أن الشرطة لا تهتم بشخصيتي، إذ كنت أدخل إلى القسم وأخرج منه كالشبح. أما الدفتر، فكانت الشرطة غالباً ما تنسى أين وضعته، لتبحث عنه طويلاً قبل أن تجده، أما أنا فقد نويت: سأنطلق إلى استامبول مساء، بعد إثبات وجودي في القسم، وسأعود إلى بورصا مساء الغد. إن التوقيع الصباحي فقط، سيخلو من الدفتر في هذه الحالة، وبغيابي هذا أردت امتحان رجال القسم. فيما إذا كانوا سيلاحظون ذلك أم لا. وفي الصباح، لم أحضر إلى القسم. ولما عدت في المساء، لم يلاحظ أحد ذلك. حتى أن شعرة في جفونهم لم تهتز لعدم وجود التوقيع الصباحي. معنى ذلك، أنه باستطاعتي أن أتوجه إلى استامبول بكل جرأة. لكن السؤال كان: من أين لي المال؟.

وأنقذت بشكل مفاجئ إذ أن إحسان الناس المجهولين كما يحصل غالباً، أنقذني في اللحظات العصيبة. ونحن للأسف، قلما نقدر على مكافأة ذلك. وبنفس الأسلوب، علماً أننا نريد ذلك ومساعداتنا غالباً ما تأتي في غير وقتها. ومن الصعب علي التصور. أنني قادر على مساعدة صديق وهو في وضع حرج «بصورة أخرى طبعاً» خاصة، عندما تكون المساعدة ضرورية له كالهواء، علماً أن كل شيء وأرد...

وأنا حينما أساعد المنكوبين، أتذكر دائماً، أصدقائي الذين ساعدوني. وقد آلمني، أن المقربين إلي، اعتبروا ذلك فعلاً غريباً مني، ولهذا السبب...

أي لكي لا أظل تحت عبء الشعور بالدين، أحاول مساعدة الناس بكل ما أستطيع، لا كفعل غريب مني، بل لأهداف مصلحية.

وقد مد يد المساعدة لي، عامل من بورصا. ولخجلي الكبير، ما عدت أذكر اسمه. وحديثي معه لم يتجاوز ثلاث جمل مقتضبة. كان يعمل في معمل صغير في البداية، ثم انتقل إلى معمل كبير لنسيج المناديل ومناشف الحمامات، وأقمشة مزركشة بالورود الأناضولية. كانت هذه الأشياء تعلق في فناء المعمل بعد صبغها. وكان واضحاً من يديّ وملابس صديقي المجهول، إنه يعمل في صباغة القماش، أو في تعبئته. وكما ترون، ليس بإمكاني أن أقول، من هو، وماذا يعمل. وقد أرسلني إليه رسام الكاريكاتور «مصطفى أويكوزوز» زميلي في مجلة «ماركو باشا». فقد تبين أنهما خدما الجندرمة معاً. كتب لي مصطفى رسالة يقول فيها: «اذهب إلى صديقي على هذا العنوان وهو سيساعدك». أما أنا فكتبت رسالة للعامل، لكنه لم يستطع أن يأتي إلي. لأن بورصا مدينة صغيرة، وكل شيء فيها على مرأى من الجميع. فإذا علمت الشرطة، إن علاقة ما تجمعنا، وإنه يساعدني أيضاً، فإن مكروها سيقع لهذا المسكين. ذهبت إلى المعمل، وعند الباب طلبت منهم أن يدعوه.

من، نقول له؟.

ـ صديق.

وسرعان ما خرج.

والبخار يتصاعد من يديه الملونتين. وعلى ما يبدو، أنه كان يعمل في الأصبغة الساخنة.

ـ زميلك في الجندية، مصطفى أويكوزوز كتب لك عني...

ـ نعم...

ـ أخرج من جيبه عشر ليرات وناولني إياها.

ـ شكراً.

ـ لا شكر على واجب.

ـ إلى اللقاء.

- مع السلامة.

هذا كل ما تحدثنا به. لقد طلب مصطفى من صديقه، أن يعطيني عشر ليرات كل شهر، حتى نهاية المنفى، وهذه العشر ليرات تكفي لأجرة الطريق إلى استامبول ذهاباً وإياباً. بعد ذلك، كنت أتسلم المساعدة من العامل بشكل منتظم.

وفي المساء المحدد لسفري. ذهبت إلى القسم، ووقعت في دفتري، ثم انطلقت إلى محطة القطار. يجب ألا يراني أحد في استامبول. وصلت إلى البيت بعد منتصف الليل. وكان أطفالي نائمين. ولم أوقظهم. وهم لن يروا والدهم في الصباح. ثلاثة عشر شهراً من الفرقة. فهم لم يزوروني عندما كنت في السجن، هكذا طلبت.

مكثت في البيت ثلاث ساعات فقط. فقد اتضح لي، أن البقاء أكثر من ذلك غير مستحب. لكن إلى أين المفر... كنت غريباً في بيتي...لا... لم أكن غريباً، بل آخر يصعب تسميته...

أعتقد، أنه ليس باستطاعة الإنسان، أن يقول ويكتب عن نفسه كل شيء. ولهذا يجب عليه أن يتجاوز عقده وأن يسمو فوقها.

لم أعد أذكر الآن، أين قرأت، كيف يتحدث المخرج المسرحي السوفييتي العظيم «ستانسلافسكي» عن لقائه الأول مع «ليف تولستوي» وكان ستانسلافسكي آنذاك، يقوم بإخراج مسرحية شهيرة جداً. ذات مرة، وفيما كان ستانسلافسكي يتناول طعام الغداء في أحد المطاعم مع صديق له، وهما يتناقشان حول بعض تفاصيل المسرحية. دخل ليف تولستوي إلى القاعة فجأة، وكان تولستوي في ذروة مجده. نهض ستانسلافسكي وقدم نفسه لتولستوي، ودعاه إلى طاولته. وكان تولستوي قد سمع الكثير عن ستانسلافسكي. لكنه لم يكن يعرفه شخصياً. سأل تولستوي عما يقوم به ستانسلافسكي فذكر له الأخير اسم المسرحية التي يقوم بإخراجها. كانت هذه المسرحية معروفة جداً، ليس من قبل الكتاب والفنانين فحسب، بل من قبل أبسط، أبسط المثقفين. قال تولستوي: «لم أسمع بهذه المسرحية أبداً...».

ويشير ستانسلافسكي في ملاحظاته قائلاً: «إن إنساناً عظيماً كتولستوي فقط، يمكنه أن يعترف بجهله بكل بساطة. وبدون أي خجل». نعم... وهكذا...

فعندما يعترف الناس بجهلهم، وبأفعالهم السيئة. فهم لا ينتقصون من قيمتهم. بل على العكس، يسمّون فوقها.

وأنا كلي عزيمة في هذا الكتاب، وفي هذه الذكريات «هكذا كان... وهكذا لن يكون» أن أعترف بما لا يعجبني في شخصيتي. ومع ذلك لا يمكن أن نكتب عن كل شيء على ما اعتقد. صحيح أنني أكتب ذكرياتي، لكنني لا أتحدث عن نفسي فقط، بل عن الناس الذين، كنت على صلة بهم آنذاك. وأصعب شيء، هو أن نكتب عن الآخرين. إذ أن كل إنسان، عاني الكثير في حياته، كما أن الجميع مروا في أزمات سببت الآلام لهم. وأنا على سبيل المثال، قاسيت كل ذلك، وطحنته في داخلي. لكن كيف بالنسبة للآخرين، الذين كانوا بالقرب مني؟ ألا يجوز، أننا ببعثنا للماضي، قد نجرح الأقارب، ونسبب الألم لأحد ما؟.

عدت إلى بورصا في اليوم التالي، وذهبت إلى قسم الشرطة فوراً. وهناك، تبين لي، أن أحداً لم ينتبه لغيابي.

وبعد هذه الرحلة، كان قضاء ما تبقى من أيام المنفى ـ وهي ليست كثيرة ـ أكثر عذاباً، وأكثر صعوبة مما مضى. كنت متشائماً جداً بالمستقبل. وأنا حتى هذه اللحظة، لا زلت أندهش من نفسي. كيف استطعت المقاومة، وكيف لم انتحر...

لكن الكثير بعد ذلك أصبح لا يخيفني.

14
كل يشرب على ذوقه

أخيراً عثرت على صديق في بورصا. كان يقضي عقوبة المنفى أيضاً، لكن ليس مثلي بقرار من المحكمة العسكرية، وبعد السجن، بل بدون محاكمة أو أية تهمة. فقد استمرت الأحكام العرفية أثناء وبعد الحرب العالمية الثانية. وكانت تمدد كل ستة أشهر. واستمرت ستة أعوام. وقد كانت السلطة تستغل هذه الحالة، وترسل الناس إلى أماكن نائية في الأناضول، بسبب أفكارهم «اليسارية» دونما تحقيق أو محاكمة. وكانت النساء المنفيات والرجال أيضاً، يأملون بعد كل ستة أشهر بانتهاء حالة الأحكام العرفية ليطلقوا سراحهم. وهم بنتيجة ذلك، قضوا ستة أعوام من العذاب، والحرمان في أماكن غريبة. ولم تحدد لأحد من هؤلاء، المقتلعين من جذورهم مدة المنفى. وهم لهذا السبب، فقدوا الأمل بإطلاق سراحهم في المستقبل العاجل. وكان صديقي أحد هؤلاء المنفيين. وقد اعتبر محظوظاً في تلك الأيام، ذلك الذي لم يحصل على ورقة هذا «اليانصيب» واستطاع أن يتجول في استامبول بكل حرية.

وصل صديقي إلى بورصا، أو بالأحرى أعادوه إليها، في نهاية الأعوام الستة لسجنه. وبعد أن فقد الأمل برفع حالة الأحكام العرفية، توجه صديقي إلى استامبول بدون تصريح. وسرعان ما تم اعتقاله هناك. أما أنا، فكنت قد تعرفت عليه في سجن استامبول العسكري. وكان اسمه معروفاً بالنسبة لي، من خلال مقالاته في الصحف.

وفي بورصا، استأجر صديقي غرفة مجاورة لغرفتي في نفس المبنى. وكان الكثير من تفاصيل مصائرنا متشابهة. وكان أكبر مني بقليل. وكنت أكن له

كل مشاعر الود والاحترام الصادقة. وكنت في دخيلتي اسميه معلماً. وفيما يتعلق بأجرة غرفته، فقد كان يدفعها ذلك العامل الصديق، الذي كان يساعدني، وعلى ما يبدو، إن هذا الإنسان لا يعير المال أية أهمية، ولم تكن لتوجد لديه.

قبل أن يقوم صديقي برحلته الخائبة، إلى استامبول، ترك كل عفشه وسريره أيضاً عند أحد معارفه. وعندما عاد، طلب مني أن أعيدها إلى مكانها. طبعاً وافقت، ولكي لا يراني أحد وأنا أحمل السرير والحزمة، ذهبت كما شرح لي صديقي إلى مكان البيت في الظلام، ورميت العفش عند بيتنا الخشبي القديم ذي الطابقين. ثمة امرأة عجوز كانت تسكن في الطابق السفلي. وكانت تبدو أكبر من عمرها بكثير. وفي الطابق العلوي، كان ثمة ممر وغرفتان إحداهما أكبر من الأخرى. ومن قبيل الاحترام للمعلم، وضعت عفشه في الغرفة الكبيرة، ثم وضعت سريره في وسط الغرفة وبدأت أحضر الشاي على بابور للسبيرتو.

وفي أيام الشتاء، كان صديقي ينام باكراً جداً، حتى قبل حلول الظلام. ويستيقظ عند الفجر. ولم يبدل نظام حياته، كما لم يكن ينهض فوراً عند الصباح. وعندما ينهض، كان يرتدي كل ما عنده من ثياب، حتى أنه كان يلبس كفيه عدة أزواج من الجوارب العتيقة. ثم يجلس ساعات متواصلة، منكباً على كتاب ما فرنسي أو ألماني... كان نحيلاً جداً. ولذلك نجمد من البرد. ولكي يتأكد من أن الغرفة باردة، كان يكور شفتيه ويطلق نفسا، فإذا خرج البخار منهما قال: ميزان الحرارة يشير إلى البرد.

وإن أشار ميزان حرارته إلى الدفء، فعندها كنا نخرج إلى الشارع. ثمة مكان واحد في بورصا كان باستطاعتنا أن نرتاده متى نشاء. إنه نادي متسلقي الجبال...

وكان من الصعب عادة، أن نجد مكاناً نجلس فيه لكثرة المرتادين. لكننا غالباً ما كنا نجد مكاناً. فنحن ما إن نظهر في تلك القاعة الفسيحة، حتى يلتفت الجميع إلينا مرعوبين وقد جحظت عيونهم تماماً كما لو أن «مومياثين» بعثت بهما الحياة من جديد، ودخلا إلى هذه القاعة.

كنا نلقي نظرات خاصة على الطاولات، ثم نتجه إلى واحدة منها.

وما إن يرانا الجالسون خلف هذه الطاولة، حتى يفروا هاربين من القاعة نهائياً، أو يجلسوا خلف طاولة أخرى. ولم يكن ذلك من قبيل الاحترام لنا، بل من الخوف أن نجلس معهم.

أما الذين كانوا يجلسون خلف الطاولات المجاورة لطاولتنا، فكانوا يسرعون في الخروج إلى بيوتهم. وأكثرهم شجاعة، كان يشيح بوجهه عنا. وبالنسبة للنادل، فهو الآخر لم يأت إلينا فوراً. وعندما كان يحن علينا بنظرته، نقول له باقتضاب: شاي.

وذات يوم مشمس في أواسط الشتاء، ذهبت وصديقي إلى شرفة النادي، وشغلنا طاولتنا كالمعتاد. وكان هدفنا شرب الشاي الساخن. لكن النادل لم يقترب منا طويلاً. وفي النهاية جاء إلينا حاملاً صينية عليها أربعة كؤوس ووضعها أمامنا.

ـ هذه ليست لنا..

ـ لكم.. ـ أجاب النادل.

ثمة ماء في كأسين، وفي الآخرين كان سائل ما أصفر اللون... وأنا لم أجرب في حياتي هذه الأشياء، وكل ما أعرفه من المشروبات الكحولية هو العرق والنبيذ والبيرة. لقد سمعت بأسماء خمور كثيرة. لكنه لم يصدف لي أن اشتريتها أبداً.

كررت قائلاً بحزم: هذه ليست لنا، ونحن لم نطلب شيئاً بعد...

أجاب: لكم!.

يا الله!... إنهم يريدون إجبارنا على شرب عقار لا نعرفه! أليس من الممكن، أن يكون مشروباً غالي الثمن؟ إنني ارتعب دائماً من الزجاجات، ذات الأسماء المجهولة. إذ ألا يجوز، أنني لا أقدر على دفع ثمنها؟ فأنا أعرف، أن ثمن بعضها يصل حتى المئة ليرة. وهل باستطاعة المنفي، ولو لهذا السبب، أن يشرب كل ما يقدم له دونما تمييز؟.

ـ إن السيدة الجالسة خلف الطاولة المجاورة، طلبت لكم هذه الكؤوس.

ذهب النادل، أما نحن فنظرنا إلى بعضنا مرتبكين.

ـ ماذا يعني ذلك؟.

يالها من ورطة! وكيف تُشرب هذه؟ هل يجب مزجها أم إنهـا تُشرب على حدة؟. فكرت طويلاً، طويلاً، ولم أفهم شيئاً.

سألت صديقي: ما العمل؟.

أجاب: دعنا نجرب. اعتقد أنها تشرب كالعرق ممزوجة بالماء... كلام فارغ!... من ذا الذي يضيِّف بلا مناسبة؟ لقد حصل خطأ ما... ثم لماذا ستطلب هذه المرأة لمنفيين مثلنا، هذه المشروبات؟.

سنشرب، لكن كيف سندفع ثمنها؟.

استوقفت النادل مرة أخرى وقلت له: لقد حصل خطأ، ونحن لن نشرب هذه.

ـ قلت لكم يا سادة، إن المرأة الجالسة خلف الطاولة المجاورة طلبت لكم هذه.

كرر النادل ذاكراً اسم المرأة.

ـ من تكون!؟ وما هذه المشروبات!؟.

غمز النادل بعينه وكأنه يقول «لا تكونا أحمقين» ثم ابتسم بخبث وقال: فودكا روسية.

إذ ذاك فهمت اللغز. ففي تلك الأيام، كانت الفودكا الروسية تعتبر كرمز لحرية الفكر، ولهذا السبب، كانوا يخافون من وضعها على الطاولة، على مرأى من الناس. وكان أكثر خطراً بالنسبة لنا. لأننا كنا معروفين... ما الذي تعنيه هذه السيدة الجالسة خلف الطاولة المجاورة، بطلبها لنا الفودكا الروسية، وليس النبيذ أو العرق؟.

من المؤكد تماماً، أنها تهزأ بنا.

قال صديقي: التفت إليها... يجوز أنك تعرفها.

ـ لن ألتفت إليها بأي شكل من الأشكال، التفت أنت.

إننا نجلس كتمثالين لا نجرؤ على الحركة... تظاهرت وكأنني أنظر إلى ناحية أخرى، ورمقت معذبتنا بنظرة خاطفة. يا الله!.. لقد كانت ترتدي سروالاً أبيض، وكندرة بيضاء، ومعطف فرو أبيض، وطاقية من الفرو الأبيض أيضاً. وبالقرب منها جلس غندوران قرويان وكانا ثملين.

ـ ما أجملها!... ومن هذان الجالسان إلى جانبها؟ والدها وعمها؟.

وما الذي سنفعله؟.

ـ سنشرب.

ـ أعوذ بالله!.

وصديقي يعرف كيف يمكن خداعي فقد اقترح: أنا سأشرب الفودكا الروسية، وأنت تشرب الماء. أنت تريد أن تجعل مني أضحوكة... إن السيدة تنظر إلينا.. أما أنا، فلم أشرب الفودكا الروسية في حياتي، حتى أنني ما رأيتها بعيني. فقد ظننت أن السائل الأصفر هي الفودكا، والفودكا هي الماء. وخلسة عن صديقي، سكبت السائل الأصفر في كأس، والسائل الشفاف في كأس آخر.

ألح علي صديقي قائلاً: عندما ستشرب، التفت إلي السيدة، وانحني لها مسلماً.

ـ لا أقدر على ذلك.

ـ لا تكن أحمق.

رفعت كأسا مليئاً حتى النهاية. واقتربت به من فمي، التفت إلى السيدة نصف التفاته، واحنيت رأسي قليلاً وأنا في نيتي شرب الكأس دفعة واحدة. وفجأة شعرت بالنار في حلقي، وكأنني ابتعلت جمراً.

لم يستطع صديقي أن يتمالك أعصابه، فراح يضحك.

ـ لنخرج من هنا بسرعة... سأتقيء الآن... يا للعار.

وعندما مررت بالقرب من طاولة السيدة، علق أحد الرجلين: أن بلعوم هذا القزم مطلي بالقصدير.

«تعقيب»

كنت واثقاً من أن المعلم لم يكن يعرف الفودكا الروسية أيضاً. وهو لم يعترف بأنه مثل علي. وقد توجب أن أعيش معه مدة طويلة. وعرفته عن قرب.

وفهمت ابتسامته الساخرة الخفية، وولعه الغدار في التمثيل على الناس. وكان من الضروري معرفته عن قرب، لأفهم مدى اللذة التي حصل عليها، عندما سقاني الفودكا، وهو يجهل الفرق بينها وبين الماء. ولم يرد أن يفضح نفسه أثناء ذلك. أما أنا فكنت أصدقه خير تصديق.

15

بطانية للبيع

الثلج يتساقط كالقطن المندوف. ومن استامبول استلمت عدة حوالات بريدية بعشر ليرات، وعشرين ليرة، ومرة واحدة بأربعين ليرة.

هذا يعني، أنه يوجد في هذا العالم أناس فهموا، وأحسوا بالوضع الذي أنا فيه. يبدو من الصعب «إخفاء المخرز في الكيس»...

كل مساء أحضر إلى قسم الشرطة لأوقع في دفتري... ها هي تواقيعنا... إنها تعني شيئاً ما...

لازلت أبحث عن عمل منذ اليوم الأول لوصولي إلى بورصا. أي عمل اكسب منه. التقيت هنا بزميل آخر أيام الدراسة. إنه الآن موظف يشغل مكاناً محترماً. وأنا لا أريد إخافته، ولذلك أجيب على أسئلته بحذر شديد...

- أين تسكن؟.

- في الفندق.

- أين تأكل؟.

- في المطعم.

- الله!... الله...! إنك لست عملي. هداك الله... تسكن في الفندق، وتأكل في المطعم، سائح أنت أم منفي لتفعل ذلك؟ إنك فعلاً غريب الأطوار. لو تستأجر غرفة بخمس وعشرين ليرة، أو ثلاثين ليرة... في الضواحي، وتشتري منقلاً وبعض الصحون والطناجر وتحضر الطعام في البيت.

يا إلهي!... كم يحب الناس هنا إسداء النصائح، إنهم يعبدونها، وهم يبحثون عن شخص لإسداء النصائح له. كرم خارق!... وهل يظن أن مثل هذه الأفكار لم تخطر على بالي!... عجباً! من أين لي أن أستأجر غرفة واشتري صحونا؟ لازال باستطاعتي أن أجمع ثلاث ليرات في اليوم، لكن من أين لي أن أنفق عشر ليرات؟ لا شك أن الحياة كما ينصح صاحبي أرخص، لكن لابد لذلك من وجود المال. وكما هو معروف، إن حياة الأثرياء أرخص من حياة الفقراء!...

الثلج يتساقط. وأنا جائع. والغرفة باردة. ومحسوبكم مدين للفندق بأربعة أيام. لا أدري كم مرة فتشت غرفتي الخاوية، وفجأة لمحت البطانية. تلك التي أجمع بها أمتعتي. لقد أصبحت بالية بسبب استعمالي الفظ لها. كم من السنين تحملت. سخريتي هذه البطانية البنية. لقد جلنا معاً كل أطراف الأناضول. كنت ألفّ بها فراشي وأغطي بها نفسي أو أمدها في العراء، أو أجعل منها ستارة للنوافذ. علقت البطانية على النافذة، واقتربت منها. وكان الضوء يتسرب من خلالها وكأنه عبر غربال. لا يوجد مخرج أخر. يجب أن أودع بطانيتي العتيقة. فالجوع لا يرحم. لقد حرمت من أصدقائي وأسرتي وموطني الحبيب، والعيش الإنساني، وها أنذا بكل مرارة، أودع بطانيتي مرغماً. ولن يدفعوا لي بها أكثر من خمس ليرات!.

سمعت، أن في بورصا كما في استامبول يوجد ما يسمى بـ«سوق القمل» حيث يتاجرون هناك بالأشياء المستعملة، لكنني لا أعرف موقع هذا السوق، كما أنني أخجل من السؤال عنه، المدينة ليست كبيرة على أية حال... سأذهب... وقد أعثر عليه لعل وعسى...

طويت البطانية، آخر ما أملك... طويتها بإتقان، ثم حزمتها بالجريدة وربطتها بالخيط.

إن تربيتنا ليست صحيحة. فأنا أخجل من الظهور مع بطانيتي تحت إبطي أمام الناس. هذه البطانية، التي ستخدمني بإخلاص في الأيام العصيبة. إنني أخجل من الاعتراف بكوني جائعاً. ولهذا أحمل أعز ما لدي لأبيعه. ما الذي أخجل منه؟ إنه خجل كاذب.

خرجت من الفندق وركبتاي ترتجفان. سلم علي موظف الفندق. لكنني لم أجرؤ على النظر إلى وجهه، الذي كتب عليه «أنت مدين لنا بأربعة أيام» وحينما لمح الحزمة تحت إبطي، هرع إلى غرفتي ليتأكد من أنني لم أسرق شيئاً. خرجت إلى الشارع، وكان الثلج لا يزال يتساقط كالقطن بلا توقف. وبسقوطه على الجريدة، كان يذوب فوراً. وابتلت الجريدة وأصبحت هلاهيل. انعطفت في أحد الأزقة، وجلت بورصا كلها طولاً وعرضاً ولم أعثر على ما يسمى بـ«سوق القمل» وخارت قواي. ورفضت ساقاي المشي. وأنا لا أستطيع أن أسأل أحدا عن الطريق. فهم سيفهمون فوراً... وما في ذلك؟.

ما الذي سيفهمونه من ذلك؟ من السهل عليكم أن تتكلموا، لأنكم لم تمروا بهذه الحالة.

تمزقت الجريدة بعد ابتلالها بالثلج. وأصبحت البطانية مرئية. أردت إدخالها في عبي، لكن دون جدوى. وأنا لازلت أدور وأدور في نفس الأماكن والبطانية المربوطة بالخيط تحت إبطي، ولا وجود لـ«سوق القمل». تابعت سيري وأنا أسب وأشتم. وعندما كانت الكلمات تنفد، كنت ابتكر غيرها، لكن من كنت أسب وأشتم، ولماذا، ولأي شيء، هذا ما لم أكن أعرفه. كنت حاسر الرأس، وكان الثلج يذوب في شعري ويجري في تلابيبي. وحل الظلام. كلي إحساس أن لا وجود لي. وكنت فقط، أحرك ساقي بصعوبة. وعند مدخل الفندق اصطدمت بذلك العبقري، الذي نصحني أن أستأجر غرفة واشتري صحونا. سألني: ما الذي تحمله؟.

- بطانية... اشتريتها...

صعدت إلى غرفتي وفرشت البطانية المبتلة على السرير... جيد أنها ظلت معي.. أليست هي جزء من وجودي؟ كم رائع أنني لم أعثر على «سوق القمل»! سأجد حلاً ما... ومع البطانية ستكون الأمور أسهل.

16

محانك قف

كان المغضوب عليهم أيام السلاطين العثمانيين، يرسلون إلى المنفى، لكنهم كانوا يعاملون بشكل إنساني أكثر من الآن. إذ يعين المنفي في منصب ما، أو يدفع له مرتب شهري.

كانت أحوالي تسير بشكل سيء جداً. وقد تظاهرت مضطراً بأن أسناني تؤلمني، لكي أخلع الذهبية منها وأبيعها. وبعتها، وصرفت ثمنها، ولم يعد لدي ما أبيعه. وها أنذا أجلس يومين كاملين بمعدة خاوية تماماً. قضيت الوقت في المكتبة العامة، وكان دماغي هو غذائي الوحيد. لكن دماغي قاوم جداً، وهو يفكر في الطعام، وفي إيجاد عمل أيضاً. وأرباب العمل يتخلصون مني بشتى الأساليب، خوفاً من أن يقعوا على القائمة السوداء.

لم تكن لدي القدرة، حتى على الابتسام، عندما تشقلبت في الشارع الرئيسي لبورصا. وفجأة شعرت أن شخصاً ما يربت على كتفي. وقد ظننته شرطياً. لكن لا، إنه واحد من رفاقي في المدرسة. وبصعوبة بالغة، استطعت الوقوف على ساقي، عندما انقض رفيقي على عنقي وراح يعانقني. أحمد الله على أنني وقعت على طريق معبد. أخذني من يدي، وقادني إلى أقرب مقهى، وما إن وجدت نفسي هناك... عفواً، وما أن وجد جسمي المتجمد حتى العظام نفسه في المقهى. حتى بدأ يذوب ويتراخى بفعل الحر الشديد، المنبعث من المدافئ الملتهبة، والجو الخانق، ودخان السجائر. وبدأ الشاي الساخن في معدتي التي لم تر الطعام ليومين، يضغط بألم على أحشائي. رحت أحلم، هل سيفطن رفيقي ويدعوني إلى

المطعم... أما هو فكان يتحدث. ولم أكن أسمعه، بل كنت أهز لـه رأسـي، منتظراً منه الكلمة المنشودة عن المطعم، لدرجة أنـني رأيـت اللحـم المشـوي أمامي. وتـرددت... أعتقـد مـن الأفضـل أن نطلب صحنـاً مـن الفـول مـع الزيت: أما هو فكان يلج.

ـ وما هي أخبارك الجديدة الجيدة؟.

ـ على ما يرام... يجب أن نطلب صحنا من الرز...

ـ ما هو تقييمك للأحداث الأخيرة في البلد؟.

ـ فول مع الزيت.

ـ لقد أصبحت تتكلم بالرموز... ما هو تقييمك للأحزاب؟.

ـ عصير.

ـ لماذا أنت في بورصا؟.

ـ أخيراً، طرح علي السؤال الأهم:

اعترفت له، بأنني أتيـت إلى هنـا رغـم إرادتـي، وبـأن قيـادة الأحكـام العرفية، أرسلتني إلى هنا لكي «أبدل» المناخ برفقة دركيين.

وما إن قلت له ذلك، حتى تجعد وجهه فوراً وكأنه أراد أن يعطس. ثـم نهض بسرعة واتجه للباب وهو يقول: انتظرني... سأعود حالاً.

بقيت لوحدي ما يقارب من الساعة. «لا يمكن... سيعود من كل بد...» هكذا رحت اطمئن نفسي بعد أن شربت كأساً أخر من الشاي. مضت ساعة أخرى، وصديقي لم يعد.

«الله... الله... ماذا سـأفعل؟ كيـف سـأدفع ثمـن كأسـين مـن الشـاي؟ سأتبهدل لا محالة!». وأنا لا أستطيع الهرب متسللاً... فقد كنـت جالسـاً على مرأى من الجميع.

واتتني النجدة بشكل مفاجئ. فقد ظهر أحد معارفي عند مدخل المقهى. قال وهـو يحييـني بفـرح: رأيتـك عـبر الزجـاج، ولهـذا أتيـت... أزحـت الكرسي وقلت: تفضل.

ظهر النادل عند طاولتنا وكأنه نبت من تحت الأرض.

ـ قهوة ساده.

ـ رحت أراقب فنجان القهوة وهو يميل إلى شفتي صديقي. وما إن شرب الجرعة الأخيرة، حتى هب واقفاً وأزاح الكرسي وقال: اعذرني ليس باستطاعتي أن أجلس أكثر، فلدي عمل لا يحتمل التأخير. ومضى.

يا حبيبي!... كنت بصدد كأسين، أما الآن فصاروا ثلاثة...! ليس صدفة أن يقال: «أتتك المصائب، افتح لها الأبواب». لم يكن لدي الوقت للتفكير بأحاسيسي. فكل ما كنت أفكر به، هو كيف سأخرج من هذا المقهى بدون شرشحة؟ فإذا قلت، أنني لا أقدر على الدفع، فإن صاحب المقهى سينقض علي قائلاً: «أي شيطان جاء بك إلى هنا يا وحيد القرن. جئت لتشرب الشاي بلا ثمن. ولتسقي أصدقاءك أيضاً؟».

وفجأة رأيت أحد معارفي عبر الزجاج، وبدأت انقر له. رد على دعوتي: لدي عمل لا يحتمل التأخير.

ـ بالله عليك... تعال واشرب فنجان قهوة.

لقد قررت أن أفعل مثلهم. سأطلب له قهوة وأتسلل هارباً. لكنني لم أستطع النهوض فوراً. لأنه بلع قهوته بسرعة وسبقني قائلاً: المعذرة... لقد تأخرت..

تشبثت بكم قميصه قائلاً: ادفع أولاً ثمن كأسين من الشاي، وفنجانين قهوة، وبعدها اذهب حيث تشاء.

ـ اقسم لك إنني لا أحمل معي أية نقود.

الله... الله... ـــ! أكاد أفقد عقلي يا لبختي السيء، وسمعني الله مستجيباً، فوراء الطاولة المجاورة، كانت تجري لعبة الـ«تريك ــ تراك» وكان أحد اللاعبين قد ربح مرتين. قال متحدياً: من أيضاً؟.

قلت له متلعثماً: لو تسمح... نظر إلي شزراً وقال: ماذا ستدفع؟.

ـ ما تريده...

ـ علبة، سجائر.

وبدأت اللعب. ومن فزعي ورعبي لم أعد أحس بالأرض تحت قدمي. خسرت الشوط الأول والثاني، أما الثالث: الله... الله إنها رحمتك.

من الصعب التصور كيف أنقذت. إذ ثمة تقليد في مدينة بورصا لا مثيل له في المدن التركية الأخرى، ولا حتى في العالم كله أيضاً. فقد أصدر أحد محافظي بورصا في يوم من الأيام، أمراً بأن تقوم جوقة الآلات النحاسية لبلدية بورصا، بعزف مارش الاستقلال مرتين في اليوم. صباحاً ومساءً.

وعلى الجميع أن يتجمدوا في أماكنهم ريثما تنتهي الجوقة من العزف. فالحوذي مثلا، يتجمد رافعا السوط بيده. والنساء يتجمدن حاملات أطفالهن على أيديهن. والحلاقون يتجمدون وأمواس الحلاقة في أيديهم، فيما تكون ذقون زبائنهم متبلة بالصابون.

والباعة يتجمدون وهم يمسكون موازينهم وفواكههم في أيديهم. الجميع يقفزون، ويتجمدون في أماكنهم وكأنه الأمر العسكري: «مكانااك... قف» وتعاقب المحافظون، لكن التقليد ظل باقياً «فإذا رمى مجنون حجراً في بئر، فإن أربعين عاقلاً لا يشيلونه».

وفيما كنت سأهوي في الشوط الثالث، زعقت الجوقة فجأة، انتفض منافسي وتجمد في مكانه، حاملاً شوكة اللعب في يده... وقفز كل من كان في المقهى وتجمدوا في أماكنهم. وعندما تسللت نحو الباب، سمعت أحدهم يزعق بي بفظاظة: هي... أنت... مكانااك... قف.

ـ لا وقت عندي لـ«مكانااك... قف» قف مكاني لو سمحت قلت متمتماً واختفيت.

«تعقيب»

كان الخوف والرعب من الوشايات والاتهامات الكاذبة في تلك الأيام، تسيطر على المواطنين بشكل لا يصدق. فإذا لم يستجب أحد المواطنين لأمر «مكانك قف» لخطأ ما، أو بسبب جهله، عندما كانت الجوقة تعزف مارش الاستقلال عند النصب التذكاري لأتاتورك، فإنهم ينقضون عليه وهم يشتمون.

ـ هي... أنت مكاناك... قف...

ـ ألا تسمع مارش الاستقلال... أم أنك أطرش...

ـ هذا الأبله، لا يفقه في السياسة...

ـ مكاناالك... قف... يا حيوان... إنهم يعزفون مارش الاستقلال...

ذات مرة، وفيما كنت أتناقش مع أحد الاختصاصيين في بهو الفندق، علمت حسب الاحصائيات، أن أعلى نسبة لمرض السل في تركيا، هي بورصا.

ـ طبيعي أن يكون كذلك... وأنا لست مندهشاً...

ـ لماذا؟.

ـ كيف لماذا؟ إن أهل بورصا المساكين، يجبرون على التوقف شتاء، تحت المطر والثلج وفي البرد مرتين في اليوم... صباحاً ومساءً... بغض النظر عن أنهم سيتجمدون من البرد، أو يبتلون بماء المطر...

جحظ محدثي عينه وقال بصوت جهوري: ماذا تقصد؟.

أدركت فوراً، أن عقله لا يستوعب مثل هذه النكت، فأجبت: لاشيء...

وكان الخوف كنبتة العليق... تلتصق بك ولا تقدر على قلعها... لقد خفت جداً... ألا يجوز بأنه يعرف وضعي كمنفي... وسيخبر الشرطة عن حرية فكري... وعندها على الدنيا السلام؟!...

ـ إنني أمزح... أمزح....

قلت له متملقاً، وقد كشرت عن أنيابي حتى هدأته. وهدأ، أما أنا فالتصقت به، خوفاً من أن يهرب إلى الشرطة.

17

باجرم المشهود

كان المساء. وكنت وحيداً في غرفتي الباردة، من رأسـي حتـى كعبي، ولكي أشعر بالدفء، كنت أندثر تحت البطانية، ياله مـن قلـق... إنـني أحلم بالنوم كل هذه الفترة العصيبة، وأن أستيقظ علـى كلمـات: «انهـض يا صديقي... فقد انتهت أيام المنفى».

النوم لا يأتي، نكاية بي، كـم مـن الأساليب، جربت لكـي لا أنـام عندما كنت طليقاً. كنت أعمل الليل كله، وعند الصباح كنت أوخز بطـتي ساقي بالإبر لكي لا أنعس، وأنهي العمل في حينه.

والآن، نم ما تشاء... لكـن لا نعـاس. اعتقد، أنـه مـن العـدل، لـو أن الإنسان المنفي، يغرق في سبات شتوي.

ثمة طرق على الباب، قطع سلسلة تأملاتي المحبطة.

ـ تفضل!!.

وعلى عتبة البـاب، ظهـر رجـل ضخـم في سني تقريباً. وكـان وجهـه معروفاً لي. لكن أين ومتى رأيته، لم أعد أذكـر، بـدأ الرجـل يشرح، بأنـه عرف مكاني عند صاحب محل بيع الكتب، وإنه قـدم إلي بسـبب إعجابـه بقصصي، وإنه يريد أن يظهر جميـل العطـف علـي. ليـس أحلـى بالنسـبة لكـاتب في وضـع كوضعـي، مـن أن يـدرك، بأنـه اسـتطاع إيقـاظ المشـاعر الإنسانية في قارئه، وأنه حاز على صديق جاء ليمد له يد المساعدة.

قال: لكنني أعرفك.

ـ وأنا كذلك... إن وجهك أليف جداً.

وفيما كنا نتساءل عن أين ومتى التقينا، توضح لنا في النهاية، أننا كنا زميلين في مدرسة واحدة، منذ عشرين عاماً فقط.

ومعظم الناس يؤكدون، إن الكلمات تعجز عن إيصال مشاعر، وأحاسيس الإنسان المؤثرة، وأنا في الحقيقة، لا أستطيع أن أعبر عن تأثري بهذا الترحيب الودي الحار، لقد بحث لي هذا الصديق عن مسكن يقع في شارع هادئ، مطل على نهر بورصا.

وفي المسكن الجديد، أصبحت لي غرفتي المنفصلة الدافئة، وعرف صديقي، أنني من محبي شرب الشاي، فاشترى لي إبريقاً، وكأساً وبابور سبيرتو، وأعطاني نقوداً.

واعتباراً من هذه اللحظة، صارت لي زاويتي وفراشي الناعم. كما أصبح بإمكاني الآن، أن أعيش بشكل أرخص وأنسب، أما صديقي، فكان يزورني كل يومين أو ثلاثة أيام جالبا معه السكر والشاي وعلب السجائر. كنا نتناقش ونشرب الشاي. ولم يكن يتأخر عندي، لأن زوجته وأطفاله، كانوا ينتظرونه في الأمسيات. وذات مرة، قطع حديثنا المسائي الهادىء، بكعب يطرق على الباب. وفجأة انخلع الباب وأحدث ضجة.

وظهرت أمامنا امرأة جميلة شابة، بعينين ساخطتين ووجه غاضب، وراحت تقذف صديقي بالشتائم. إنها زوجته. واجب علي أن أعترف، إنها كانت محقة جداً في عتابها القاسي. وأنا نلت نصيبي منها كفاية.

يا الله... ما العمل؟ إنني في وضع لا يحسد عليه. حاولت تهدئتها... لكنها لم ترغب بسماعي. وكان باستطاعتي فقط، أن أتضرع إليها قائلاً: سيدتي... أرجوك....

أما هي، فلم تسمح لي أن أفتح فمي: من الأفضل لك أن تصمت...

لقد عرفت بوسيلة ما، أن زوجها استأجر لي مسكناً، وأنه يساعدني ماديا، ويشتري المؤن الغذائية أيضاً... وهكذا باغتتنا. إليكم ما حدث فيما بعد.

أمرته قائلة: قم واذهب إلى البيت بسرعة.

لم يكن صديقي أقل حيرة مني. وكنا على استعداد أن نغوص معاً في التراب. لقد كان وجه صديقي الجاد، والمثقف، يحمّر خجلاً كوجوه الأطفال. ونحن ما زلنا نحاول بكل ما نستطيع، تهدئة هذه المرأة المنفعلة.

قال صديقي لها مبرراً: نعم... إنني أساعد صديقي القديم... وأزوره في بعض الأحيان... ما العيب في ذلك!؟.

- أنا أعرف كل شيء... اذهب الآن إلى البيت...

- اذهبي أنت... وسألحقك بعد قليل...

- لا... سنذهب معاً... ولن تطأ قدماك عتبة بيته بعد الآن!...

وفجأة بدأت تشهق: إما أنا.... وإما هو....

قلت لها متلعثماً: سيدتي... أرجوك... أهدأي... أنت... فعلاً...محقة...

ثم قلت لزوجها: لا عليك... اذهب يا صديقي....

يا الله... إن الأسرة ستنهار من أجلي بلا سبب... وتلعثمي يزيد من شكوكها. أخيراً نهض زوجها واقفاً وصرخ: كفاية!.. انقلعي من هنا... خبطت زوجته الباب خلفها وهي تسب باكية. عليم الله، أنني صادق في اعتبار الحق إلى جانبها... فهي تريد إنقاذ زوجها من الكارثة. وفي البيت مازال ينتظر صديقي عراك حاد، أما أنا، فكنت أحاول تهدئته بكل صدق.

في الحقيقة، إن الشيطان وحده، يعرف كم كتبوا عني. ولهذا اعتبر خوف زوجة صديقي في محله. إذ كم من التهم، ألصقت بي، لدرجة أنني أصبحت أشك بنفسي أحياناً. أليس من حق هذه الإنسانة أن تحس بالخطر مني؟ زد على ذلك، إنها عزمت على التدريس في بورصا كما صرح صديقي. وصديقي يخجل من نزوات زوجته التي يفترض أنها إنسانة مثقفة. مر زمن طويل بعد تلك الحادثة، وأنا لازلت اعتبر، أن زوجة صديقي كانت محقة. ولن أنسى أيضاً، ما أنعم عليّ به زوجها.

18

قطائف وسمّ

تعرفت على شاب في بورصا، يكاد يعتبر نفسه كاتباً منذ أن كان في القماط، وقد قدموه لي ككاتب قصة قصيرة، ولا أظن أنه أنهى شهادة الدراسة المتوسطة.

بعد اللقاء الثالث به، شعرت أنه ينظر إلي نظرة عداء... لا بأس... كل شيء وارد...!.

تبين فيما بعد، أن أحداً من كتاب القصة القصيرة، أو الروائيين، أو الشعراء في تركيا، لا يعجبه...

سألته: ماذا قرأت؟.

ـ وهل هناك ما يستحق القراءة؟ إن المطالعة إضاعة للوقت وأنا لم أجد لنفسي عملاً أدبياً ممتعاً...

لديه من الاعتداد بنفسه ما يكفيه، ظننت في البداية، إن شيئاً ما خفياً يكمن في هذا الشاب، ولذلك كنت حذراً منه، وقد اعترف بأنه ليست لديه أية قصص مكتوبة، لكنه نشر مقالة أو مقالتين في إحدى المجلات، واعتبر نفسه عبقرياً بعدها.

قلت له بشكل عرضي: إذا كان الكاتب لا يقرأ ولا يعمل ولا يتعلم، فإنه لن يستطيع كتابة القصص.

لكنه كان واثقاً بلا أدنى شك، إن الموهبة عطاء من الله، وإنه بالذات، موهوب بقدرة العلي الأعلى، وقد أعلن لي، أن بعض الكتاب الأميركين لم يدرسوا عموماً، وإنهم كتبوا قصصاً رائعة بشكل تلقائي، لم يكن يعلم كيف تمكن هؤلاء الكتاب من حرفتهم.

ـ إنها أمريكا يا عزيزي! فلو أن إنساناً عاقلاً تسكع في شوارع نيويورك، وحدائقها، وراقب واستمع إلى ما يدور حوله، فإنه سيكتسب المعرفة، أما أنت، فتعيش في هذه البقعة المنسية بورصا، وما الفائدة من التدافع إلى الشوارع؟.

ذات مرة، جلب لي هذا الشاب قصة وفي اليوم التالي أتاني مسرعاً ليسأل، إن أعجبني عمله الإبداعي.

أجبت: تبدأ الجملة عادة بحرف كبير...

قال: أما أنا فأكتبها بحرف صغير، أكتب كما يحلو لي...

إن حرية الاختيار، وحرية الكلمة موجودتان طبعاً، وكل واحد باستطاعته أن يفكر ويفعل كما يحلو له، لكن القواعد تتطلب الإذعان لها.

تابعت: كما أن إشارات الإستفهام تكتب منفصلة.

بصق الشاب، قائلاً: يا لك من بيروقراطي... إنني لا أعترف بالقواعد النحوية.

ـ وفي ترتيب علامات الترقيم كثير من الأخطاء، والسطر لا يبدأ بالفاصلة كما أن إشارات التعجب، والاستفهام حشرت في القصة بمكانها وغير مكانها...

قال خائباً: لا أحد يفهمني، تماماً كمدرس اللغة التركية في المدرسة الذي كان يلج علي بقواعده لقد كدت أن أحطمه ذات مرة.

ـ والآن لا يسعني يا صديقي العزيز، إلا أن أقول لك بأن قصتك عظيمة...

أما حياتي فكانت تسير بشكلها الطبيعي، فأنا لا زلت ارتجف من البرد في الليالي، ولا أستطيع النوم بسبب قرقرة مصاريني، فالإنسان الجائع لن يستطيع النوم أبداً، وكنت ورفيقي لا نملك قرشاً واحداً، واحتياطي الشاي والسكر شارف على نهايته.

ـ يا آلهة يا قادرة على كل شيء عززي إيماننا بوجودك فأنت ترين سوء أحوالنا وما نفعك إن كنت لن تمدي يد المساعدة لنا؟.

«مع ذلك، فأنا اعتبر نفسي سعيد الحظ، هكذا أحاول تشجيع نفسي يجب أن أشكر القدر، لأنني أملك سقفاً فوق رأسي، كيف حال المشردين في الشوارع الآن؟ أشكرك يا ربي لأنك لم تخلع سقف بيتنا ولم تخسف الأرض بنا...» وفي هذه اللحظة تناهى طرق على الباب، قلت لصديقي الذي يحب السخرية مني: ها هي الآلهة استجابت لي! ومن غيرها سيأتي في هذه الساعة؟.

ـ طبعاً لقد سمعت الآلهة زعيقك، افتح جيوبك على سعتها، فالمصائب ستنهمر فوق رؤوسنا، وسترى عندما يظهر لك عزرائيل.

هرعت إلى البوابة الخشبية الكبيرة في الحديقة وما إن أزحت مزلاج الحديقة، حتى نبق أمامي كاتبنا الشاب.

ـ أهلاً وسهلاً.

صعدنا إلى فوق.

قال صديقي للشاب: جئت في وقتك.

جلبت لكم قطائف ـ قال الشاب، وهو يقدم علبة ما.

إن الآلهة تظهر هكذا في شكل إنسان.

جلس الشاب قليلاً ثم ذهب، أما نحن فهجمنا على القطائف، وكان عددها عشر.

سأل صديقي وهو يبتلع القطيفة الثالثة: ألا تشم رائحة ما؟ ـ لا أشم شيئاً...

ـ ثمة رائحة غريبة تنبعث من هذه القطائف.

ـ ما بك إن رائحتها رائعة...

قال صديقي بعد أن التهم القطيفة الرابعة: وطعمها غريب أيضاً!... أما أنا فغضبت، لقد أرسلت لنا الآلهة القطائف بسرعة غير متوقعة وهو لا شغل له سوى النقيق.

ـ يا إلهي.

صرخ صديقي مدوياً بعد القطيفة الخامسة.

اندفعت نحوه: ماذا بك؟.

أما هو فسقط متلوياً على الأرض.

يا إلهي، إن القطائف مسمومة...

ـ ما الذي تقوله؟ لقد أكلت منها أيضاً، ولم يحصل لي شيء.

ـ اخرس لقد سممنا...

ـ أهدأ بالله عليك... فأنت لم تذق طعم القطائف منذ زمن بعيد، والتهمت خمساً فوراً، ولهذا السبب ساءت حالتك...

أما هو، فكان يتأرجح على الأرض صارخاً، إنني أموت...

لم ألحق أن أقوله له «إن الموت بسبب القطائف ليس شيئاً»...

حتى شعرت وكأن أحشائي كلها تتمزق، وسقطت على الأرض صارخاً:

ـ لقد سممنا...

ـ لأي سبب سممنا؟.

ـ هذا... ما لا أعرفه!.

ورحنا نتلوى على الأرض.

ـ آه جرعة لبن فقط..

ـ مع الثوم؟ فاللبن مع الثوم يساعد في حالات التسمم.

ـ ليكن مع الشياطين.

ـ اسمع ما الذي تقوله؟ لو أننا شربنا اللبن في المساء، لكنا نمنا بهدوء حتى الصباح، وأين يمكن العثور على اللبن في هذه الساعة؟ كما أننا لا نملك قرشاً واحداً...

ـ إنه الاستشهاد!... إننا نستشهد...

عظيم أن تستشهد في ساحة القتال، لكن أن تموت مسموماً بالقطائف في غرفة حقيرة، فهي الوضاعة بعينها...

ـ إننا نموت... ولا يوجد لبن... ضع إصبعك عميقاً في حلقك. رحت اضغط بكلتي يدي على بطني، وتذكرت أطفالي، البنت تجاوزت السادسة، والولد دخل في الخامسة من عمره... هل كُتب علي حقاً، أن أموت دون أن أراهما؟ إنهما لا يتذكران والدهما، ولا يعرفان سبب محنته، وشرعت الدموع تنهمر من عيني وتشنج جسدي من الألم.

ـ قلت لك، إن الآلهة لن تأتي إلينا، لا حاجة لها بنا، انتظر سيدك عزرائيل الآن...

وهكذا تلوينا حتى الصباح، ثم غرقنا في سبات عميق، فاقدين كل إحساس، عدا طعم مرير في الفم.

وفي الصباح زف لي صديقي البشرى التالية:

وهكذا اعتدنا على السم يا صديقي،... ولن نموت بعد الآن....

19

محارم مثل زفت أبيض عطن

تمتاز بورصا عن المدن التركية الأخرى، بحريرها، ودراقها، وكستنائها، وينابيعها المعدنية الحارّة، وأنا لم أستطيع شراء قميص حرير. أما ثمار الدراق الشهية على الأغصان، فكانت عالية جداً بالنسبة لقصير مثلي. لذلك، أردت أن أستحم في ينابيع بورصا الحارة، الشهيرة على الأقل، لكي أحدث أصدقائي عن قوتها العجيبة، عندما سأعود إلى استامبول. ومع أن الحظ لم يحالفني بأن أدفئ جسمي بالقرب من هذه الينابيع، مع ذلك، فأنا لم أفقد الأمل بالذهاب إليها. يجب أن أتحلى بالصبر.

أخيراً، عرفت أين يقع «سوق القمل» ذلك الذي لم أعثر عليه، يوم أردت بيع بطانيتي العتيقة، فقد دلوني على الطريق، وحاولت أكثر من مرة، أن أتاجر في هذا السوق لأحسن أوضاعي. بالمناسبة، أنا لم أشتر، وإنما كنت أبيع...

وفي «سوق القمل» تعرفت على بائع خردة، متوسط العمر، وتصادقت معه، له مني تحية صادقة، لقد كان إنساناً طيباً، مخلصاً، وواحداً من أقرب الأصدقاء، الذين تعرفت عليهم في بورصا. أذكر ذات مرة، أنني تعرفت على فتاة شابة، رائعة الجمال، وقد التقيت بها أكثر من مرة...

وفي أحد الأيام، قررنا الذهاب إلى السينما، وفي الطريق كنت طوال الوقت أنحني مسلماً على أصحابي. وكأنهم خرجوا إلى الشارع نكاية بي في ذلك اليوم.

علقت الفتاة: ما أكثر معارفك!... إن كل المارة يسلمون عليك!.

أجبتها بكبرياء: نعم... الجميع هنا يعرفني تقريباً...

ـ لكن ليس بينهم إنسان شريف...

وصداقتي لم تستمر طويلاً مع هذه الفتاة. وأظن أنكم تعرفون السبب. وهي من وجهة نظرها كانت محقة. فالمسألة، هي أن كل واحد منا، يفهم ويقيم مزايا الناس بشكل مختلف عن الآخر.

وبائع الخردة الذي تصادقت وإياه، كان يحاول مخلصا، تخفيف عبء الحياة عني.

إن لدى كل كائن «برأيي» توجد رعونة لا يُشك بها أبداً. ورعونة صديقي بائع الخردة، تجلت في ألمه العميق لأجل النساء العوانس، وفي عطفه على الرجال، الذين لم يستطيعوا العثور على شريكات حياتهم. لقد أراد أن يخفف العبء عن مواطنيه، وأن يساعدهم في المشاركة بمصيرهم. كان يحرم نفسه من كل شيء، ليوفر المال، ويمنحه لهم بكل سعادة. كان أرملاً، فقد توفيت زوجته، وتركت له طفلين صغيرين، هما في أمس الحاجة لمساعدته. كان يفكر بالزواج، لكن لم يكن لديه الوقت الكافي لذلك. ثمة فكرة ظلت تقلقه، وهي أن يفتح مكتب وساطة لجمع شمل الوحدانيين، وقد اعتبر ذلك رعونة فيه. لكن جاء وقت، وفتحت مثل هذه المكاتب، وأصبحت ظاهرة عادية.

وما أن أحل ضيفاً على صديقي، حتى يبدأ بالحديث عن شخص ما، وعن تفاصيل جديدة تخصه. وقد علم بوسيلة ما، أنني أحلم بالذهاب إلى الينابيع الحارة.

وكم رغب في تحقيق هذه المتعة لي. انضم إلينا أحد أصدقائي وجاري في المسكن.

تجمع لدي الكثير من الملابس الداخلية الوسخة. وقلت لنفسي، إنه من الأفضل لي، أن أغتنم الفرصة، وآخذها معي لغسلها. فالمياه الحارة تهدر مجاناً، ومن غير الله وحده، يفكر بعباده المساكين مثلي، ويمنحهم المياه الحارة على الأرض، ليغسلوا ثيابهم الداخلية. لم تكن هناك أية

إمكانية للقيام بذلك في البيت. إذ لا ماء، ولا طشت، ولا زاوية تتسع لفعل ذلك، وهكذا قررت أن أضرب عصفورين بحجر واحد، سأتعالج في المياه الحارة، وسأغسل كومة الثياب الداخلية. وقد قرأت في الكتب والمجلات. إن الينابيع الحارة، تتضمن الأملاح المعدنية، ذات الخصائص العلاجية المختلفة، مثل: الكبريت والفوسفور... الخ...

وبما أنه ليس باستطاعتي المجيء دائماً إلى هذه الينابيع، لذا قررت أن أدخل في جسمي دفعة واحدة كل الكبريت والفوسفور... الخ...

إن بعض هواة السباحة في البحر ـ وأنا منهم ـ يرغبون في الحصول على كل روعته دفعة واحدة، وكثيراً ما يحدث، أنهم يتلقون ضربة شمس على الشاطئ مباشرة، أو تسلخ جلودهم في أحسن الأحوال. ويلازمون الفراش لأكثر من أسبوع. لكنهم إلى جانب ذلك، يحصلون على ثلاث وثلاثين متعة فوراً.

وأنا لم أفكر بالعواقب عندما كنت متجهاً إلى الينابيع. فقد أردت الحصول على ما هو نافع وممتع بلا مقابل... فالنقود غير متوفرة كالعادة. كان الطريق طويلاً وممتعاً. أخيراً وصلنا إلى الحمامات المتوزعة في مكان فسيح تحت قبة. وفي الجدران، كانت ثمة تجاويف، نصب فوق كل واحد منها صنبور. أما الحوض، فكان في الوسط. ومن فم الأسد المصنوع من المرمر، كان يسيل تيار هائج من الماء المتلبد بالبخار. وكانت أشعة الشمس المنسابة عبر القبة الزجاجية، تشق البخار منعكسة في الماء.

إذاً، فالينابيع تتضمن الكبريت والرصاص والفضة والفوسفور أيضاً... يا الله!... ما أكثر العجائب على أرضنا المباركة!.

إن الكثير من المساكين المشوهين والمشلولين، يصلون على عكاكيزهم وعرباتهم، ونقالاتهم، من أماكن مختلفة للعلاج في هذه الينابيع. وهم ما إن يسبحوا في هذه الينابيع حتى يذهبوا بعيداً، وقد رموا عكاكيزهم، مستعدين أن يرقصوا على سيقانهم ذاتها. وعلى ما يبدو، أنني سأطير كالعصفور، بعد خروجي من هذه الينابيع. ورفاقي لم يفكروا طويلاً. فقد قذفوا بأنفسهم في الماء فوراً، لأنهم كانوا متحررين من الأعباء المنزلية.

جلست عند صنبور الماء، ورحت أغسل ثيابي الداخلية. بدأت بالجوارب ومحارم الأنف. فكرت، أنني إذ أقوم بجهد عضلي، فإنني سأبتلع عناصر الينابيع المفيدة وقوة علاجها بشكل أكثر فعالية. وعندما سأتعب، سأقذف بنفسي في الحوض، واتخبط في الماء. ثم... أنزلت ساقي في الينابيع، وشعرت فوراً، كيف بدأت العناصر العلاجية تتسلل إلى عضلاتي.

صرخ أحد أصدقائي: عجّل واسبح... فسنخرج بعد قليل.

أما أنا، فكنت قد غسلت الجوارب والمحارم فقط.

ـ اذهبوا وسألحقكم حالاً... انتظروني في المشلح.

ورحت أسرع بغسل ثيابي، وقد خلطت الملونة مع البيضاء منها، وكنت طوال الوقت أكلم نفسي: أشعة ما فوق البنفسجية.... فوسفور... كبريت... أشعة أكس... يا إلهي كم ثيابي كثيرة!... أعصر الجوارب وأتابع أتمتم: كبريت... يود... فوسفور... اقترب مني الحمامجي وقال: إنهم ينتظرونك تحت.

ـ دعهم ينتظرون... سآتي حالاً...

اضطررت لمضاعفة سرعتي. الآن سأنهي الغسيل، وسأهوي في الحوض... لكن كومة الغسيل لا تنقص.

ـ لا تضنوا علي بأشعة أكس!... اهجمي عليَّ أيتها الأشعة فوق البنفسجية!...

وفجأة أحسست وكأن الدنيا اسودت في وجهي، وشعرت بالدوار في رأسي. وراح كل شيء يسبح حولي... وأغمي علي... وكانت أصابعي المتشنجة تعصر سروالي الداخلي الوسخ، الذي بدأت بغسيله قبل حدوث ذلك. حملوني إلى خارج الحمام والسروال الوسخ لا يزال بين أصابعي. إنني لن أرميه ولو قطعوا رأسي. فقد عشت في ذلك الفقر، لدرجة لا تسمح لي أن أتخلى عن خيراتي. فتحت عيني، ورأيت جمعاً من الناس حولي.

أطلقت أنيناً: يا الله... ثيابي...

ـ إنها بين يديك.

ـ أين البقية؟.

جلبوا لي كومة الثياب المبتلة بالماء، ولم أتمكن بعد ذلك، من المجيء إلى هذه الينابيع. كما لم أتمكن من اللعب تحت سيل الماء المتدفق من فم الأسد المرمري.

وعدت إلى البيت مع ملابسي التي لم تغسل. حدثني أصدقائي، أنني أثناء غيبوبتي، كنت أردد أشياء ما عن الكبريت والفوسفور والأشعة ما فوق البنفسجية.

لكنني إلى جانب ذلك...! استطعت أن أغسل، خمس محارم بشكل رائع. وقد كانت بيضاء مثل زفت عطر. فمحارم الأنف ضرورية جداً في المنفى، فهي تمسح، وتشرب عرق الحمى، والدموع الرخيصة.

20

محاولة اغتيال

سريعاً ما يحل الربيع في سهول بورصا. ومع أن الشمس تشع لكنها لا تدفئ الإنسان المتجمد. وكانت عروقنا وصديقي ترتجف من البرد والجوع. وفي الصباح نقفز من السرير، ونهرب من البيت لنركض في الشارع المعبد ذهاباً وإياباً، وقد وجهنا ظهرينا المتخشبين إلى أشعة الشمس الربيعية. لكن لا حيلة لهذه الأشعة بإذابة الجليد عليهما. لازلت أحضر إلى قسم الشرطة كل مساء لادون «عوجتي» في الدفتر. وعلى ذكر الدفتر، فأنا أجبرت علي شرائه يوم وصولي إلى بورصا. إنه دفتر مدرسي مؤلف من عشر صفحات. كتبت على مغلفه عبارة «دفتر التلاميذ» وقد أصبح هذا الدفتر بالنسبة لي كاللجام. وفيما كنت أقوم بمراسم التوقيع، كان صديقي ينتظرني في الزاوية المقابلة من الشارع.

ذات مساء، رأيت إلى جانبه شاباً مجهولاً في العشرين من عمره، ظننت في البداية، أنه واحد من معارفنا. لكنني ما إن اقتربت منه، حتى أدركت، أنه لا يعرف من نحن وماذا نعمل في بورصا.

ـ من يكون؟ ـ سألت بطرف عيني.

هزّ صديقي كتفيه وأجاب بصوت غير مسموع: «لا أعرف». لقد علمتنا حياة المنفى، أن نحذر من كل شيء، ولم نكن نرغب في الحديث مع أناس مجهولين. إذ من أين لك أن تعرف بمن تصطدم؟ وعن أي شيء سنتحدث، إذا لم يكن هناك ما يستدعي ذلك... هل سنتحدث عن المصائب من جديد؟.

نظر الشاب إلى صديقي نظرة ثاقبة، بدت وكأنه يريد الدخول إلى عالم أعماقه، حتى أنه رفع أحد حاجبيه.

انطلقت وصديقي نمشـي على الرصيف، غير آبهين بالشاب خلفنا وفجأة راح ينادينا باسمينا، وسأل عن ذلك متأكداً. هززنا رأسينا مرتبكين. إذا فهو سمع عنا. رحنا نمشي معاً صامتين. وأخيراً شرع يتكلم من جديد. إنه يعرف بأننا منفيان، ويعتبرنا قائدي المنظمات السرية. فأنا برأيه، قائد كل الفصائل الثورية، السرية المبعثرة في جميع أنحاء تركيا. إن فدائيين مدججين بالقنابل اليدوية والرصاص يخضعون لي. يا الله!... ما أكثر الأشياء التي تتخيلها العقول السخيفة!... إنني أنفي ذلك... والشاب لا يصدقني.

ـ طبعاً... طبعاً... أنا أفهم كل شيء... أن منظمتكما سرية، ونشاطكما غير علني... وأنتما لا تعترفان لأي كان... لا تخافا مني... فأنا أيضاً أريد العمل في منظمتكما.

لا أعرف كيف يمكنني إقناعه... فقد أقسمت له بكل ما يمكن أن يقسم به.

ـ عن أية منظمة سرية تتحدث؟ انظر إلى شكلينا...

ـ طبعاً... طبعاً... أنا أفهم لكي لا يشك أحد بكما... لكن باستطاعتكما أن تثقا بي.

يا لها من مصيبة حلت فوق رأسينا. وما كادت الشمس تشرق في صباح اليوم التالي، حتى كان الشاب يدق على النافذة. إن رعبنا لم يكن مجرد مزحة. فالشاب يداهمنا في أي مكان، كالمطر الغزير، ونحن لا نستطيع الهرب منه. وقد اعتدنا على أن أحداً لا يزورنا، ولا يتكلم معنا. لأن عدوى الخوف منا انتقلت إلينا. ولهذا ليس بإمكاننا أن نقول لهذا الوقح «انقلع من هنا» فهو سينشر عرضينا بالقيل والقال، وقد يذهب إلى الشرطة ويشتكي علينا. وهكذا راح يأتينا مبكراً كل صباح، حينما نكون نتناول الفطور عادة، أي نغمس الخبز في الشاي ذهنياً.

ـ إنكما تحصلان على المال... أليس كذلك؟.

ـ أي مال!؟.

ـ ألا تحصلان عليه من الخارج؟.

ـ أي مال يا أخ!؟.

ـ لكي تقودا المنظمة السرية يا عزيزي...

آه... كم بودي أن أمسكه من تلابيبه، وأقذفه إلى الشارع... لكنني أصمت مجبراً.

ـ ألا ترى ما نأكله؟ وهل هذا فطور من معهم مال؟.

ـ مفهوم... مفهوم... يجب أن تحرما نفسيكما من كل شيء، لكي لا تثيرا الشكوك عند أحد...

الآن... وما إن يحل الصباح، ونسمع دقاته على الباب، حتى ننظر إليه من خلف الستائر المصنوعة من الجرائد، ونكتم نفسينا، ولا نفتح له، عندئذ يأتينا في الصباح التالي مبكراً أكثر.

هذا السافل يدق بلا نهاية... ولا يريد الذهاب... والأنكى من ذلك، إنه يأتينا في وقت الفطور... ولديه شهية الوحوش، فحبات الزيتون التي كنا نوزعها على أربعة أيام كان يلتهمها دفعة واحدة، والخبز يبتلعه دون أن يمضغه. لم يكن ينقصنا، نحن الجائعين، سوى هذا الشاب اللجوج.

أعرف... أعرف... أنتما لا تثقان بي ـ هكذا يقول الشاب، وهو يدفع الخبز تحت فكيه الاثنين.

ـ لماذا لا نثق بك؟.

ـ لو أنكما تثقان بي، لاسندتما لي مهمة ما.

هكذا كان يتذمر ويتذمر. قررنا بشكل حازم، أننا لن نفتح له الباب. دعه يدق ما يشاء، لكن صاحبة البيت كانت تخذلنا. فهي تسكن في الطابق السفلي، ولا تحتمل الدق على الباب. لكن هذا المقحام ما إن يظهر، حتى يصبح كذبابة لا يمكن طردها. وهو على استعداد أن يتغدى ويتعشى معنا، وبما أنه يعتبر نفسه عضواً في منظمتنا السرية فإنه يجلس على مائدة الطعام دونما دعوة.

ونحن أيضاً كنا ماكرين... إذ لم نكن نضع الطعام أثناء وجوده. وكنا نكاد نموت من الجوع... لكننا كنا نحافظ على هيبتنا. ولم يكن ذلك بخلاً منا، بل لعدم توفر....

أخيراً، لم يحتمل الشاب: لديّ رغبة في الأكل... هل سنفطر هذا اليوم؟.

أما هو، فلم يجلب معه كسرة خبز ولو مرة واحدة. بيد أنه يريد أن يتغذى على حساب المنظمة السرية، التي تتلقى المساعدات المالية من الخارج، اعتدنا أخيراً على هذا الشاب... ولم يعد يثير غضبنا. وهكذا أصبحنا ثلاثة نضيع الوقت... منفيين... ومتطوع آخر. ذات مرة، أرسلوا لنا هدية من استانبول. وقد جلبها واحد من أهالي بورصا، العائد من هناك. فتحنا الكيس و: يا الله... تجمدنا من الدهشة... دجاجة مقلية وعلبة بقلاوة!...

وفي هذه اللحظة بالذات طرق شابنا على الباب. ولكي لا نكون مغفلين، أعدنا الدجاجة والبقلاوة إلى الكيس و... بسرعة إلى الخزانة، وفيما كانت صاحبة البيت تفتح الباب، تمكنا من ترتيب الأمور على خير ما يرام.

ـ مرحباً ـ قال الشاب وهو يحدق بنا بانتباه ـ هل حدث لكما مكروه؟ لا أبداً...

ـ إنكما اليوم غير طبيعيين.

ـ وحق الله... لا شيء.

ـ تخفيان عني؟.

ـ لنبلى بالعمى.

ـ أنتما لا تثقان بي...

مفهوم...

الدجاجة والبقلاوة في الخزانة، ونحن لازلنا صامتين. أما هو، فكان يشعر بتوترنا... يبدو من الصعب خداعه.

نتقاذف الكلمات عن هذا وذاك، والدجاجة والبقلاوة أمام أعيننا، تثيران اللعاب في فمينا، يجب ألا ندعوه... وإلا فإن العظام وحدها ستكون من نصيبنا. فهو سيلتهم كل شيء على حساب المنظمة السرية، وهو إلى ذلك، لا يفكر بالخروج.

حرن يقول: أنتما لا تثقان بي... ولذلك لم تسندا أية مهمة لي.

وللمرة العاشرة يسأل: هل تخفيان عني شيئاً؟.

ونحن لازلنا صامتين. وفجأة بدأت أقول له برزانة، مثل قائد حقيقي لمنظمة سرية عملاقة: نعم يا رفيق... ثمة شيء نخفيه عنك.

اتسعت عينا صديقي، وكتم أنفاسه.

- لكننا اليوم، سنفضي لك به.

قطبت حاجبي. ونظرت إليه عابساً وقلت بلهجة لا تقبل الاعتراض: لم نوكل إليك أية مهمة، لأنك كنت لا تزال تحت الاختبار حتى هذه اللحظة، أخيراً أخبرونا بأنك إنسان شريف... ويجب أن نوليك ثقتنا.

تابعت: واعتباراً من هذه اللحظة، ستكون واحداً منا، وعضواً في منظمتنا.

أجاب: شكراً.

- أنت تعلم... أن منظمتنا تعمل بشكل سري، ولا تندهش إذا قلت لك، بأنك ستكون تحت إمرتي فقط، والآن سأسند إليك أول مهمة خطيرة. أمسك هذا المغلف. وعليك أن تضعه في مكان خفي — في جوف شجرة الدلب العتيقة، إياك، أن تفتح المغلف، أو أن تلتفت إلى الوراء بعد أن تضعه. فقد يكلفنا ذلك حياتنا. إنه نظام الأساليب السرية. وليس مزحة.

وأنا تذكرت هذا الجوف، لأننا كنا نذهب دائماً إلى فناء المسجد، ونجلس تحت شجرة الدلب على يسار نافورة الماء. وهكذا بدأت أروّج لهذه الشجرة.

- مفهوم... مفهوم... - قال الشاب - فأنتما كل يوم تذهبان إلى هذه الشجرة... وقد خمنت... أن هناك شيئاً ما.

تناولت مغلفاً من رزمة الكتب، ووضعت ورقة بيضاء نظيفة في داخله وصمغته، ثم سلمته إلى العضو الهائم للمنظمة المختلفة.

- إلى الأمام... سر... حالفك الحظ.

أخذ الشاب المغلف، وطار مرفرفاً. وفي الحال أخرجنا الدجاجة والبقلاوة وبدأت الوليمة. وأنا لا أذكر في حياتي وليمة مضحكة كهذه. لقد اختنقت من الضحك، والدموع غطت عيني.

وما إن نظفنا الطاولة، حتى سمعنا دقا على الباب. إنه الشاب... عاد من المهمة.

ـ المهمة نفذت. ـ قدم الشاب تقريره كالجندي.

ـ برافو.

ما تبقى من الدجاجة والبقلاوة يكفينا لمدة يومين على الأقل. والمخرج من الأزمة موجود. فما إن نرغب في تناول الطعام، حتى اختلق للشاب مهمة ما وأرسله بعيداً. وعلى هذا الأساس، استطعنا تحاشي هذا الشاب الطفيلي.

ذات مرة، ألح علي: ما الذي كتبت في الرسالة؟.

ـ هذا سر.

لكنه لم يقنع بذلك بسهولة.

فبما أنه يعمل تحت إمرة القائد المباشر فهو إذا يقوم بمهمات خاصة جداً. ولذلك يعتبر من حقه أن يكون بصورة الأشياء. كنت أحاول أن أسبغ نفسي بهالة عظيمة. أخبرته باقتضاب: نحضر لعملية اغتيال.

ـ اغتيال اينونو؟(*).

ـ لا أعرفه... من يكون؟.

ذات مرة، عاد الشاب بوجه شاحب كالموت وقال: الأخبار سيئة!... سألت مرتعداً: ما الذي حدث؟.

ـ مغلف البارحة لا يزال في مكانه، ولم يأخذه أحد. ألا يجوز أنهم اعتقلوا الرسول؟ ألن يحدث لنا شيء؟.

كنت كل مساء أنزع المغلف من جوف الشجرة، لكنني نسيت هذه المرة.

(*) عصمت اينونو: «١٨٨٤ ـ ١٩٧٣». شخصية سياسية وحكومية في تركيا.

ذهبت وإياه إلى المسجد. ولم يكن للمغلفين من أثر في جوف الشجرة. يبدو أن شخصاً ما أخذهما.

قبل انتهاء المنفى بعدة أيام، قال الشاب يعاتبني: إنك تستغيبني.

ـ ماذا تقصد؟.

ـ فتحت المغلف ذات مرة، ولم أجد سوى ورقة بيضاء نظيفة.

زعقت: ماذا؟ تجرأت وفتحت المغلف؟ وعبثت بالقسم؟ إننا نكتب بحبر سري... ومن الصعب قراءة الرسالة إذا لم تكن تعرف السر. إذ يجب إظهارها أولاً.

ها أنذا في استامبول من جديد. أربعة أعوام مرت بعد تلك الحادثة. لكي أستطيع العيش، فتحت دكاناً لبيع الكتب. وفي تلك الأيام، كان «نجيب فاضل» صاحباً لجريدة يومية دعيت بـ«الشرق العظيم».

ثمة يوناني، كان يبيع الفطائر بجوار دكاني. دخل إلي ذات صباح بعينين مستديرتين من الخوف. سلمني جريدة بيدين مرتجفتين وقال: يكتبون عنك!...

على الصفحة الثانية مقال من ثلاثة عواميد: «كيف أنشأنا منظمة سرية في بورصا، وكيف أعددنا لاغتيال اينونو» موقعة باسم ذلك الشاب وعبارة بين قوسين: يتبع غداً...

وارتجفت يداي وساقي من الرعب. استمرت حلقات المقال لمدة عشرة أيام. وعشرة أيام وأنا بين الموت والحياة. وكنت كل صباح انتظر قدوم الشرطة والأصفاد. لكن اينونو لحسن حظي لم يكن في ذلك الوقت ضمن الشخصيات البارزة للحزب الديمقراطي. كانت الدعوة إلى «شنق اينونو وإعدامه ونفيه» تلاحظ يومياً على صفحات الجريدة. وبما أن المقال وزع على عشرة أعداد، فهو لم يلفت الانتباه كثيراً.

بعد ذلك بزمن طويل. سألت نجيب فاضل: ألم تخف آنذاك من نشر ذلك المقال في جريدتك؟ فقد كنت ستجلب لي الموت...

أجابني: أما أنت فتذكر مؤلف تلك المقالات.

إنني أسبح في العرق عندما أفكر بما كان سيحدث لي، لو أن ذلك المقال أثار الانتباه: «عزيز نيسين ينشئ منظمة سرية إرهابية» ـ «مؤامرة ضد عصمت إينونو». جرب إن كنت قبضاي، أن تتنصل من هذه الوشاية، أو أن تكم أفواه الناس.

وعلى سبيل الحيطة، هيأت خطاباً دفاعياً للمحكمة:

ـ سيدي القاضي... أريد أن أقدم توضيحاً: إن تلك العملية قد تمت بسبب دجاجة مقلية وعلبة بقلاوة... لقد أنقذناها من ذلك الوقح السافل...

كنت سأتحدث عن كل ما جرى لنا في بورصا بكل صراحة. لكن السؤال هو: هل كانت الهيئة العليا للمحكمة، ستأخذ إيضاحاتي تلك، بعين الاعتبار؟.

21
الذكريات الأخيرة

أريد أن أنهي ذكرياتي أيام المنفى القصيرة، ببعض المشاهد المضحكة والمحزنة أيضاً.

لا تزال صداقتي مستمرة مع النحات «حكمت» منذ تلك الأيام، وحكمت لم يستطع إطعام أطفاله من مهنته. ولهذا السبب، قرر حماه، أن يأخذه كحارس لمعمله في بورصا. وبقيت أسرة حكمت في استامبول.

وكان الشوق إلى أسرته، يقتله في الغربة. وهو لهذا السبب أو لغيره كان يدعونا إلى بيته الفقير المضياف. في الحقيقة، إن حكمت كان في المنفى، لكن من نوع خاص.

كيف تعرفت على النحات حكمت في بورصا الغريبة وتصادقت معه؟.

من غير الواجب أن أقول، بأن الانسجام كان يسود علاقتنا، فقد كانت وجهات نظرنا لا تتطابق في كثير من المسائل. لكن أجواء الفن... اللوحات والصور المحفورة على الخشب والطين والألوان جعلت من إنسانين مختلفين كل الاختلاف: صديقين.

فيما بعد، دعي حكمت بيك للتحقيق معه في إدارة الأمن، وهناك أرادوا معرفة ما يدور بيننا من أحاديث. ولو أن حكمت استطاع أن ينقل لهم، كل ما كنا نتحدث به، لاعتبرتنا الشرطة إنسانين مختلي العقل، إن مصيبة حكمت، الجامع بين وظيفة الحارس ومهنة النحات أجبرتني على الانشغال عن همومي قليلاً. فقد أردت مساعدته كيفما كان، بدأت أبحث له عن زبائن في بورصا لينحت لهم التماثيل.

وبفضل مساهمتي، جاء عدد من الزبائن لا بأس به. وبذلك، استطاع حكمت بيك أن يخرج من المعمل لمزاولة مهنته. ثمة فكرة كانت تقلقني دائماً: هل كان حكمت بيك سيعيرنا انتباهه، لو كان نحاتا شهيراً؟ يجوز أن شكوكي ليست في محلها... لكن ما العمل إذا كنت كذلك....

تعرفت على شخص آخر في بورصا... كان أفقر منا بكثير، والمال لم يكن متوفرا لديه، كان هذا الشخص يرهقني بأسطوانته العجيبة، التي لا تتبدل: آخ... لو أننا التقينا في العام الماضي، لرأيت بأي ثراء عشت.

فهو بذر خمسين ألف ليرة في العام الماضي كان قد ورثها عن أبيه.

ـ لو أننا التقينا في العام الماضي لقلت لك: خذ ما تشاء! عشرة آلاف ـ عشرين ألفا... آخ... لو نلتقي في العام الماضي...

هكذا كان يقول لي في بداية كل لقاء عوضاً عن التحية. وفي نهاية الأمر تكوّن لدي إحساس وكأنني أخذت ماله فعلاً... احكموا بأنفسكم، هل لي بعد ذلك، إلا أن أتقاسم، حتى غدائي المتواضع مع إنسان لم يأسف لإعطائي حصة كبيرة مما ورثه؟.

ومنذ تلك اللحظة أصبح ضيفنا الدائم.

ـ آخ... لو أننا نلتقي في العام الماضي... أين كنت سابقاً؟.

كان يتكلم بصوت عال، لدرجة أنني اعتبرت نفسي مذنباً إزاء إفلاسه، ومسؤولاً عن خسارته لخمسين ألف ليرة.

ـ اجلس... اجلس خلف الطاولة ـ هكذا كنا ندعوه عندما نتناول الطعام. مرت أربعة أو خمسة أعوام، والتقيت به في استامبول. وكان من جديد، قد بذر تركة أخرى كبيرة،... كان مفلساً أيضاً.

ـ كيف حالك يا أخ ـ هكذا سألني ـ ها أنذا في المعلف المحطم مرة أخرى، لقد بحثت عنك في كل مكان... أين اختفيت؟ ـ آخ ـ لو نلتقي في العام الماضي....

ما العمل، إذا كانت صداقاتي مع أولئك الذين لحقوا في تبذير تركاتهم؟ ثمة شخص آخر، لا أقدر على نسيانه أبداً. إنه جاري... ذلك

الطفل ذو الخمسة أعوام، والذي يشبه ابني جداً. صغيراً كان ... جميلاً... وأشقر لعوباً... ووسخاً على الدوام.

كان ينتظر خروجي من البيت عند الزاوية. وكنت أمنحه حصة من ذلك الحب، الذي لم أستطع منحه لابني، ومن خلال النافذة، كنت أرى كيف كان يتمشى في الشارع، وهو ينظر إلى غرفتي. وعندما كانت القطع النقدية تتوفر معي، كنت أنزل إليه، وآخذه إلى البقال لشراء الحلوى له، وإذا لم تتوفر، فإنني أتسلل عبر الباب الخلفي.

كانت لقاءاتي مع هذا الطفل، تمنحني سعادة كبيرة، وكنت أحاول دائماً، أن أوفر له خمس ليرات، مهما كانت حاجتي الماسة لها. وهو ما أن يراني، حتى يهرع فرحاً للقائي، نتشابك بالأيدي، ونذهب إلى البقال. ذات مرة، وفيما كنت خارجاً عبر البوابة كالعادة. رآني الطفل، وركض نحوي، جلست أمامه على المعطف. أما هو، فراح يعانقني من أعماق قلبه. ثمة صراخ فظ منعنا من متابعة العناق. ومن البوابة المقابلة، خرج والد الطفل. وما إن رأى الطفل أباه، حتى تجمد، ثم حنى رأسه إلى الأسفل واتجه نحو بوابة بيتهم بتثاقل. وعند البوابة، راح الأب يضرب طفله بكل قوته. لقد علم الأب، أنني اشتري الحلوى للطفل كل صباح. وتابع يضربه بأقصى ما استطاع من قوة، ولأي سبب!... لأن الصغير منح قليلاً من حبه البريء لإنسان منفي.

كنت أقضي معظم أوقاتي في مكتبة بورصا. ذات مرة، دخل إلى قاعة المطالعة في قصر الشعب، عدد من الأولاد المراهقين. أخذ كل واحد منهم كتاباً وجلس.

لكن اثنين منهم أثارا ضجيجاً، وهما يتحدثان بصوت عال. أصبحت المكتبة كغرفة الدرس أثناء الاستراحة، توقفت عن المطالعة، منتظراً نهاية ضجيجهما. لكن الولدين، تابعا الثرثرة، نظرت ناحيتهما بغضب. وكان ذلك، كما لو أنك سكبت الزيت على النار، وأعصابي كانت متوترة للغاية: إنني خمس مرات اقرأ ذات السطر، ولا أفهم شيئاً... إن ضجيجكما يزعجني ـ قلت ذلك، وأنا انظر إلى الثرثار البادئ.

تفرق الأولاد تماماً... وعند ذلك نهضت وخرجت من المكتبة. وفجأة سمعت وقع أقدام خلفي والتفت. وكان الولد ذاته، الذي أثار الضجة. فكرت، أنه جاء لينتقم مني.

ـ هل أنت عزيز نيسين؟ سأل الولد لاهثاً، وقد وقف أمامي مباشرة.

ـ نعم... أنا هو.

حنى رأسه لي وقال: اعذرني لو سمحت. لقد تمكنت من قراءة اسمك على البطاقة... وحزرت فوراً... أنك أنت هو...

في حياتي الكثير من المر والحلو: ضُربت كيفما اتفق، ومُجدت عالياً... لكنني لن أنسى أبداً، كيف حنى الولد رأسه احتراماً لي. وعندما عدت إلى استامبول، بقيت هذه «الأشياء الصغيرة» كأفضل الذكريات في حياتي.

إن كل الأشياء الجميلة، وكل ما بنيته بشق النفس قبل المنفى... كان قد هوى وتناثر. العمل... والزوجة... وبيتي الحبيب وكل الأشياء... حاولت أن أجمع وأوحد كل هذه من جديد... لكنني فشلت.

22

لماذا نفيت؟

في عام (١٩٧٠) وفيما كنت أحضر هذا الكتاب للطبعة الثالثة، قرأته من بدايته وحتى نهايته، فأدركت أنه يخلو من جواب على أهم سؤال: لماذا اعتقل عزيز نيسين وأرسل إلى المنفى؟ ما الذي فعله؟ لا شك أن قرائي الأعزاء، سيطرحون مثل هذا السؤال. سأتحدث باختصار، عن أحداث جرت منذ اثنين وعشرين سنة. ففي عام ــ ١٩٤٦ كنت و«علي صباح الدين»[١]. نصدر جريدة أسبوعية «ماركوباشا».

ونزولاً عند رغبة علي صباح الدين، لم تكن المقالات توقع بأسماء مؤلفيها أبداً. وسأحدثكم بشكل منفصل لماذا قرر صباح الدين ذلك. باستطاعتي أن أقول فقط: إن علي صباح الدين، كتب المقالات الافتتاحية في «ماركو باشا» أما ما تبقى فكان: قصة لجودت قدرات «أهلاً وسهلاً بالنصر» التي كان يستنكر فيها زيارة المدرعة الأميركية «ميسوري» لمرفأ استامبول. وبضع مقالات لشريف خلوصي وخاطرتان، كتبتهما أنا.

كانت صحيفة «الجمهورية» أكثر الجرائد انتشاراً في تلك الأيام، فعدد نسخها كان يصل إلى الثلاثين ألفا. ثم جريدة «طان» وتعني «الفجر» لصاحبها «زكريا سيرتيل»[٢]. والذي كان خادمكم المطيع، يكتب القصص الساخرة فيها. وكان عدد نسخها يصل إلى (١٢) ألفاً.

---

[١] علي صباح الدين: ١٩٠٧ ـ ١٩٤٨ أحد الكتاب الديمقراطيين البارزين في تركيا.

[٢] زكريا محمد سيرتيل: ١٨٩٢ ـ صحافي وشخصية اجتماعية في الاتجاه الديمقراطي.

وقد اعتبرت جريدة «فاتان» وتعني (الوطن) «لأحمد أمين يالمان»[٣]. أكثر الجرائد معارضة آنذاك. فقد وصل عدد نسخها يوم الاستفتاء عام ١٩٤٥ إلى خمسين ألف نسخة وقد أذهل الناس هذا العدد الكبير.

وفي زحمة هذا الإنتاج الصحفي، شق العدد الأول من جريدتنا «ماركوباشا» طريقه إلى القراء بستة آلاف نسخة. وبعد صدور عدة أعداد من الجريدة، وصل عدد نسخها إلى ستين ألفا. لدرجة أن المطبعة لم تفلح في طباعتها خلال أسبوع، لكن، لماذا استحوذت «ماركوباشا» على القراء بهذه السرعة؟ فالجواب أيضاً، فيما بعد.

كان حزب الشعب الجمهوري[٤]. على رأس السلطة في تلك الأيام. وكانت استامبول لا تزال خاضعة للأحكام العرفية. وفي هذا الوقت بالذات، راحت جريدتنا «ماركوباشا» بموادها الساخرة اللاذعة، تضرب في العين لا في الحاجب، وبهذه الأعداد الهائلة من النسخ أيضاً، أقول... راحت تزعج السلطة، المتلهفة لإغلاقها.

فقد اتخذت ضد جريدتنا الأسبوعية عقوبات قانونية، كما أثيرت الدعاوى القضائية ضدها مرة أخرى، ونزولاً عند رغبة علي صباح الدين وإلحاحه، لم يشر إلي كمؤلف لتلك المقالات، أو كصاحبها أو ناشرها. وبمقتضى ذلك، لم أكن أتحمل مسؤولية ما كان ينشر. ودعي علي صباح الدين، وزملاء آخرون في الجريدة، إلى المحكمة وفيما بعد، اشتمت السلطة عبر الأمن السياسي، رائحة عزيز نيسين، مؤلف تلك المقالات. وذات مساء، دخل إلى هيئة تحرير الجريدة، شخص أصغر مني بقليل. وقال إنه يريد إخباري بشيء هام جداً. توقفت عن كتابة مقال، كنت بصدد إعداده للجريدة. قدم لي نفسه كضابط يشغل منصباً هاماً في قيادة الأحكام العرفية قال لي. إنهم تلقوا أمراً سرياً للغاية من أنقرة، يقضي بإغلاق «ماركوباشا» باعتبارها جريدة تمس بأمن الدولة.

---

[٣] احمد أمين يالمان: صحافي برجوازي. صاحب وناشر جريدة (فاتان) حتى ١٩٦١.

[٤] حزب الشعب الجمهوري: أكثر الأحزاب السياسية تأثيراً في تركيا. أسسه وقاده مصطفى كمال أتاتورك.

يبدو، أن الإنسان المكتوي بنار الأحداث غير قادر على إعطاء التقييم الصحيح لها دائماً. وكذلك الأمر بالنسبة لي. فأنا لسبب ما، لم أعر كلمات الضابط ما تستحقه من اهتمام. أما هو فأضاف مودعا. بأن مؤلف معظم المقالات في «ماركوباشا» معروف للجميع و:

«قريباً ستعتقل بأية حجة»!.

شكرته على الخبر، متظاهراً باستخفاف، وكأنني لم أسمع شيئاً. حتى إنني لم أتفرغ لطرح سؤال عليه. وبعد أسبوع، أو أسبوعين، تم اعتقالي.

انتهت الحرب العالمية الثانية، والإمبريالية العالمية لازالت تطمع في تركيا، ثمة أيد جشعة امتدت إليها. وكان «مبدأ ترومان» الإلهي، قد ظهر لتوه، وبحجة مساعدة البلدان المتخلفة، تعاظم التأثير الأميركي على كل نواحي الحياة في وطننا. وقد أصبحت «مساعدات ترومان» مصيدة لنا. وسببا للوضع الراهن، المتردي في تركيا.

وفي مثل تلك الحالة، يصبح النضال بالقلم الساخر أمرا غير ممكن. فلكي تفتح عيون الناس، لابد من نشر أجناس أخرى، ولهذا الهدف كتبت كراساً صغيراً تحت عنوان: «إلى أين نسير؟». وقد قرأ المخطوط علي صباح الدين ومدير أعمالنا خالق أيتيش. كما أن صباح الدين اعجب جدا بالمخطوط.

طلبت من علي صباح الدين، أن يدقق كل ما يمكن أن يفسر وكأنه مخالف للدستور، لكن صباح الدين قال، بأنه لم يجد في الكراس ما يخالف الدستور، وبدأ الكراس ينتشر بشكل مخطوطات يدوية. ففي تلك الأيام، كانت المخطوطات اليدوية أكثر انتشاراً من المطبوعة.

وطبع الكراس في مطبعة (ستاد) وعندما بدأ عمال المطبعة في طباعة الوجه الثاني للصفحات. هجمت عناصر الأمن السياسي على المطبعة، وصادرت عشرة آلاف نسخة، وفي اليوم التالي دعيت للتحقيق. كان مشهد التحقيق مرعباً. فقد اقتادوني إلى مكتب قائد إدارة الأمن أحمد ديمير. وبحضور عدد كبير من الناس، تم التحقيق معي على يد سيد متأنق جداً، وهو على ما يبدو شغل منصباً هاماً. أما أحمد ديمير، فكان صامتاً، ينظر

بتملق وسع عينه إلى ذلك السيد الأنيـق. وكـان وجـه السـيد الأنيـق صارمـاً جداً. فقد سألني بصوت غاضب: لماذا كتبت هذا الكراس!.

ـ منذ مدة وجيزة، نشرت صحيفة «الجمهورية» علـى صفحتهـا الأولى، مقالاً تحت عنوان كبير: «حدود أمريكا تمتد عـبر تركيـا». وهـذا العنـوان، وهذا المقال، مسا كرامتي ككاتب تركي، ولهذا السبب، كتبت الكراس.

وأنا في الحقيقة، بدأت أكتب المقال، في ذلك اليوم، عندما قـرأت ذلـك العنوان في صحيفة «الجمهورية».

تابع الصوت الغاضب فوراً: لا بأس... لكن ما الـذي تقترحـه؟ أم إننـا سندخل في النقاش؟.

أجبت: وهل باستطاعتنا أن نتناقش، ونحن في ظرفين غـير متكـافئين؟ لقد قادوني إلى هنا كمتهم، وأنا أقف منتصباً أمامك، غير عارف من أنـت، ومن هؤلاء الحاضرين هنا، زد على ذلك، أن مسدسـاتكم المهيئـة، موجهـة صوبي، وأنا محاصر بين الجدران السميكة لإدارة الأمن.

أما هو فازداد غضبه وصرخ: وهل برأيك يجب أن نصبح كلاباً روسـية؟ أجبته فوراً وبكل هدوء: أولاً، ليس من الضروري أن تصبح كلبـاً... لكـن إذا أردت أن تكون كلباً، فما الفرق في أن تكون كلباً أميركياً أو روسياً؟ مـن يطعمك أكثر، فهو صاحبك...

ـ خذوه!!.

أمر السيد الأنيق، الذي حقق معي. ثمة شـرطيان، أخرجـاني متـأبطين بذراعي.

23

إلى أين نسير؟

لا أدري، أين هي صفحات ذلك الكراس، التي طبعت على جهة واحدة، وأين ستكون إلا في واحد من الأرشيفات القضائية لقيادة الأحكام العرفية!..

إن ما يثير الدهشة حقاً، هو أنني سجنت ونفيت بسبب هذا الكراس، وفي تلك السنوات، أي عندما كانت تحدث مثل هذه الأمور، كان حزب الشعب الجمهوري يقف على رأس السلطة، وحزب الشعب الجمهوري اليوم، يتخذ موقفاً يسارياً متطرفاً، لدرجة أنه لو قارنا ما كنت قد طرحته من مسائل في كراسي «إلى أين نسير؟» مع ما يطرحه قادة حزب الشعب الجمهوري الآن، فإنني بكل بساطة، سأعتبر عدوا للتقدم.

أطلق رجال الأمن سراحي بعد التحقيق معي، لكنهم اعتقلوا علي صباح الدين، وأرسلوه إلى سجن «باشا خبيصا».

وذات يوم جميل، اعتقلني شرطيان، وقاداني إلى المحكمة العسكرية، وأثناء التحقيق، كان النائب العام، وهو برتبة مقدم، يشتم «علي صباح الدين» بأشنع، وأقبح الكلمات. وقد اندهشت لذلك، لكنني لم أستطع أن اسأل، لماذا كان يصب جام غضبه على علي صباح الدين، بلا مناسبة.

ـ هذا الضحل السافل، أرسل لي بطاقة تهنئة، «وقد ذكر مناسبة التهنئة، لكنني نسيت الآن» ما معنى ذلك؟.

أجبت: لا أعرف!...

ـ وأنت ستكون على قائمة المحكوم عليهم بالإعدام، عندما سيحتل الروس تركيا.

أي كتاب مثير سيكون، لو أنني جمعت كل التحقيقات والمحاكمات التي جرت معنا. وقد عقدت العزم على أن أكتب عن ذلك في كتابي «هكذا كان، وهكذا لن يكون». لكن كم سيكون محزناً، لو أتاني الموت قبل أن أنهي كتابة الذكريات هذه.

وأنا لهذا السبب، أريد الآن رسم صورة المجتمع في تلك المرحلة بشكل عام.

بعد خمسة، أو عشرة أيام، اعتقلت، وزجّ بي في السجن العسكري. وقد بحث «آلهة العدل» طويلاً في مجلداتهم قبل أن يجدوا المادة التي تنص على زجي في السجن. فقد رأوا، إن المادة (١٦١) من قانون العقوبات التركي، هي الأنسب، مع إنها لم تكن مناسبة جداً. وهم قرروا تطبيقها علي مع ذلك. والمادة (١٦١) تنص على ما يلي: «تعتبر وسيلة النشر، المناقضة للمصالح الوطنية...».

فأنا، بكشفي النقاب عن جوهر المساعدات الأميركية، اعتبرت في نظر السلطة التي تقود سياسة «مبدأ ترومان» إنساناً يناقض المصالح الوطنية.

قامت الشرطة بتفتيش بيتي أكثر من مرة، وأخذت معها كل وثائقي وأعمالي، ولم يبق بحوزتي قرار الاتهام ولا النص الختامي. وجوهرهما باختصار: ليس من السهل الإقرار، فيما إذا كان ذلك الرأي يتناقض أو يتوافق مع المصالح الوطنية عندما يكون قد ولد لتوه فقط، والحقيقة ستتوضح بعد مرور فترة من الزمن. أنتم تؤكدون، أن المساعدات الأميركية ستجلب الفائدة لتركيا، وأنا بدوري أؤكد أيضاً، أن وطني سيستعبد تحت ستار هذه المساعدات. والزمن سيكشف أي من وجهتي نظرينا هي الأصح. وليس جريمة، أن تكون لك أفكارك ووجهة نظرك. زد على ذلك، أنه لا تجوز المعاقبة بالسجن لهذا السبب. هيئة المحكمة: الرئيس ــ جنرال في سلاح المدفعية. الأعضاء ـ عقيد. مقدم، والنائب العام ـ وهو مقدم أيضاً.

أما القاضي، فكان زميلي في المدرسة ورتبته نقيب (وهو حالياً محام). طالب النائب العام بعقوبة السجن لمدة اثنين وعشرين عاماً، لكن ثمة ثغرة في القضية لصالحي وهي: إن الشرطة، تسرعت جداً بالاستيلاء على

الكراس. فلكي يعتبر العمل الأدبي، أي عمل «مؤلفاً» رسمياً، لابد له، أن يقرأ من قبل شخصين اثنين على الأقل، أما وقد تم الاستيلاء على الكراس، عندما كان الوجه الآخر للصفحات لم يطبع بعد، فإنه لم يصبح «مؤلفاً» رسمياً.

وقد بحثت المحكمة عن شاهدين اثنين، ليقولا بأنهما قرأا الكراس، فبدون ذلك، كان من الصعب إحالة القضية للتنفيذ، استدعوا مدير المطبعة، المغفور له «صديق آغا». وصرخ به الجنرال، رئيس المحكمة: كيف ذلك؟ هل يعقل أن تطبع كتاباً في مطبعتك، ما لم تقرأه؟.

أجاب صديق: لو أنني ساقرأ كل ما أطبعه، فإن مطبعتي لن تطبع أكثر من كتاب واحد في الشهر.

لم تنفع أقوال هذا الشاهد. وبصفة شاهد آخر - وعلى ما يبدو باقتراح من الشرطة - استدعوا زبون مطبعة «ستاد» المعلق الرياضي لنادي «غالاساراي» الذي كان يطبع مجلته الرياضية في المطبعة إياها.

صرح الزبون، بأنه لم يقرأ الكتاب، لكنه سمع عنه، وحذر مدير المطبعة صديق آغا، بأن كاتباً مثل عزيز نيسين، قد يثير له المتاعب الكثيرة. لم ترض المحكمة العسكرية أقوال هذا الشاهد أيضاً. كان عليهم أن يبحثوا عن أشخاص آخرين.

من يا ترى استطاع قراءة هذا الكراس بأكمله؟.

استدعوا عامل تنضيد الحروف، وعامل الطباعة.

سئل المنضد: هل قرأت الكراس؟.

- لا سيدي... لم اقرأه.

- وكيف نضدت حروفه؟.

- حرفاً... حرفاً.

غضب جنرال المدفعية: هل يعقل أنك نضدت الحروف، ولم تقرأها.

أجاب العامل: سيدي الجنرال، إنني أجمع الحروف يدوياً... حرفاً... حرفاً... ثمَ أضعها في صندوق الحروف. وما أن أجمع كلمة، حتى أنسى التي قبلها....

ـ سيدي... أقول لكم بأنني أجمعها يدوياً....

عندئذ، استدعوا عامل الطباعة.

ـ أظن أنك قرأت الكراس، أليس كذلك؟.

ـ لا... لم أقرأه.

ـ ولكن، كيف طبعته؟.

ـ لم ألحق في طباعة الوجه الأول للصفحات، حتى جاءت الشرطة واستولت عليه.

ـ لكنك قرأت الوجه الأول؟

ـ لا... لم أقرأه...وهل باستطاعتي أن اقرأ سيدي الجنرال؟ إنني أطبع على آلتي كتب ومناهج كلية الحقوق والتكنولوجيا و... ولو أنني قرأت كل الكتب التي طبعتها، لأصبحت الآن بروفيسوراً.

بعد ذلك، استدعوا من السجن، علي صباح الدين، مكبلاً بالأصفاد.

ـ هل قرأت كراس رفيقك؟.

ـ نعم... قرأت؟

استدعي مدير أعمالنا خالق أيتيشي.

ـ هل قرأت الكراس؟.

ـ قرأت.

ـ قرأت كراساً مؤذياً، ولم تقل بأنه يجلب الضرر للوطن، ولا حتى أمرت بإيقاف طباعته؟.

ـ أنا لا أرى أي ضرر في الكراس. بل على العكس. إنه كتاب ضروري جداً.

غضب الجنرال: هل أديت الخدمة الإلزامية؟.

ـ لا... بعد.

ـ عشت كل هذه السنين، ولم تخدم في الجيش بعد؟.

ـ لقد أجلت بسبب الدراسة... سيدي الجنرال.

ـ أين وثيقة التأجيل؟.

ـ في البيت.

أمر الجنرال: «يجب تقديم وثيقة التأجيل فوراً... وفي حال عدم وجودها يساق إلى الجيش حالاً». كانت جلسات المحكمة مغلقة. ورفض طلبي بأن تكون مفتوحة، كما أمر قادة الأحكام العرفية رجال الصحافة: يمنع منعاً باتاً، كتابة أية كلمة عن جلسات المحكمة، وسيعاقب كل من يخل بالأمر.

وفي المحكمة، استطعت تبادل بعض الكلمات مع علي صباح الدين.

فقد حدثته عن النائب العام العسكري.

لماذا أرسلت له بطاقة تهنئة؟.

أجابني صباح الدين مندهشاً: أية بطاقة؟ إنني لا أعرف هذا الشخص، ولا حتى اسمه!...

طالب النائب العام بعقوبة السجن لمدة اثنين وعشرين عاماً... لكن وبسبب عدم إثبات التهمة ـ مع الأخذ بعين الاعتبار، حالة الأحكام العرفية ـ فقد قرروا لا أكثر ولا أقل من عشرة أشهر في السجن، ثم النفي إلى بورصا.

قدمت التماساً إلى المحكمة العسكرية العليا. وقرار هذه المحكمة يصدر عادة بعد شهرين. لكن القرار بصددي جاء بعد أسبوعين: المحكمة العليا تصادق على قرار العقوبة الآنف الذكر.

وخلال الأربعة والعشرين عاماً. لن تجد في تركيا إنساناً واحداً، ما لم يعرف، إلى أين كنا نسير آنذاك. أما أنا فسرت إلى السجن والمنفى، إن جريدة واحدة أو مجلة واحدة، لم تكتب مقالاً واحداً لا ضد المساعدات الأميركية، ولا ضد الإمبريالية، ولا ضد «مبدأ ترومان» ولا ضد النفوذ الأمريكي في تركيا، عندما كتبت كراسي. بل على العكس، كانت الجرائد تؤيد هذه السياسة، مفترضة أنها ستجلب المنفعة للشعب التركي.

جاء في تقرير اللجنة القضائية للبرلمان، أنه بسبب «وجهة نظري المعادية لسياسة الحكومة» (السياسة المعادية للديمقراطية، والمخالفة

لأحكام الدستور) وبناء على المادة كذا (... مخالفة أحكام القانون...) حكم علي بالسجن والمنفى. لقد تحملت كل الآلام الناتجة عن هذه العقوبة اللاشرعية. وتألم أكثر، أصدقائي المقربين إلي، الذين ارتبط مصيرهم بمصيري، والذين لم يكن لهم أي علاقة بما ذكرته آنفاً عن النشاط المخالف للدستور.

إن المواد القانونية، التي حوكمت بموجبها قد ألغيت الآن. لكنني مع ذلك، لازلت اعتبر صاحب سابقة جرمية في نظر القانون.

وهذا يعني، أنني فيما لو مثلت أمام المحكمة مرة ثانية، فإنني سأمثل كمجرم سابق. ولي الشرف في ذلك!.

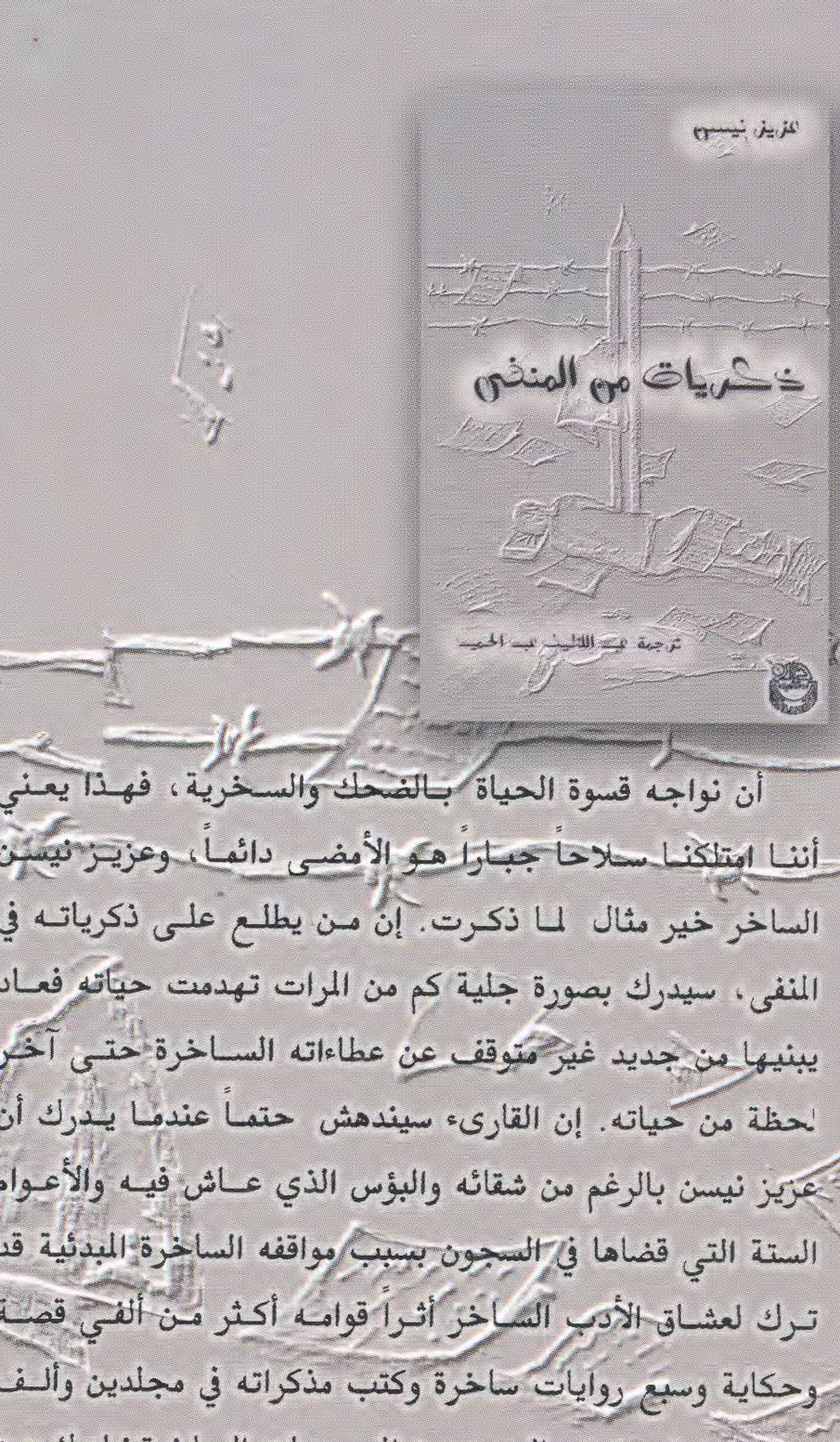
والآن، سأكرر ما قلته من كلمات في مقدمة الكتاب:

لم أكتب هذه الذكريات لكي أقول: انظروا، كم عانيت. إن آلامي غير جديرة بالذكر.

الفهرس

الكاتب التركي الساخر عزيز نسين وذكريات من المنفى
ترجمة عبد اللطيف عبد الحميد. ـ دمشق: دار الطليعة
الجديدة، ١٩٩٦. ـ ١٠٦ ص؛ ٢٠سم.
١ ـ ٩٢٨ نسين، عزيز ن ٢ ـ العنوان ٣ ـ نسين
٤ ـ عبد الحميد
ع - ١١٧٢ /٩/ ١٩٩٦
مكتبة الأسد





أن نواجه قسوة الحياة بالضحك والسخرية، فهذا يعني أننا امتلكنا سلاحاً جباراً هو الأمضى دائماً، وعزيز نيسن الساخر خير مثال لما ذكرت. إن من يطلع على ذكرياته في المنفى، سيدرك بصورة جلية كم من المرات تهدمت حياته فعاد يبنيها من جديد غير متوقف عن عطاءاته الساخرة حتى آخر لحظة من حياته. إن القارىء سيندهش حتماً عندما يدرك أن عزيز نيسن بالرغم من شقائه والبؤس الذي عاش فيه والأعوام الستة التي قضاها في السجون بسبب مواقفه الساخرة المبدئية قد ترك لعشاق الأدب الساخر أثراً قوامه أكثر من ألفي قصة وحكاية وسبع روايات ساخرة وكتب مذكراته في مجلدين وألف مجموعتين شعريتين والعديد من المسرحيات الساخرة ناهيك عن الكتابة للصحافة التي استمر بها حتى آخر أيامه. لقد أثبت عزيز نيسن أنه واحد من جهابذة الأدب الساخر في العالم فقد ترجمت أعماله إلى ثلاث وعشرين لغة حية كما حاز على العديد من الجوائز العالمية... لم يترك عزيز نيسن ناحية من نواحي الحياة إلاّ وكتب عنها وهذا عائد إلى غنى وتنوع حياته فقد كان ضابطاً في الجيش وعمل مصوراً فوتوغرافياً و رساماً وبقالاً وصحفياً وبائع كتب.. وأسلوب عزيز نيسن غاية في البساطة والعمق أيضاً وهو غالباً ما يسخر من نفسه أولاً.

عبد اللطيف عبد الحميد

58
9k
7


Bibliotheca Alexandrina
0271584